علم و اثر ٩

التاريخ
مجاله و فلسفته

الدكتور نوري جعفر



التاريخ مجاله وفلسفته



دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات الى
المدير العام ورئيس مجلس الادارة
السيد فاروق خضر الدليمي
العنوان:
العراق - بغداد - اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ - فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar - iraqculture@yahoo.com

سلسلة علم وأثر (٩)

التاريخ مجاله وفلسفته

بقلـــم

الدكتور نوري جعفر

الطبعة الثانية- بغداد- ٢٠٠٧

مقـــــدّمة

يسرني ان اضع بين يدي القارئ بحثا تناولت فيه موضوع التاريخ وفلسفته. تصديت في الفصل الاول منه الى تعريف التاريخ وحدوده مستعرضا الآراء التي عثرت عليها اثناء دراستي لهذا الموضوع[1] كالرأي القائل بأن التاريخ يتضمن جميع الوقائع (الطبيعية والاجتماعية) التي حدثت في هذا الكون الفسيح منذ نشوئه الى قراءة هذه السطور، والرأي الذي يعتبر حملته مشتملا على الآثار التي يتركها وقوع الحوادث على صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع، والرأي الذي ينظر اصحابه الى التاريخ من حيث كونه دالا على ما استطاع الانسان ان يعرفه من الحوادث الماضية(طبيعية واجتماعية)، ورأي المؤرخ اليوناني المشهور هيرودوتس الذي يعتبر التاريخ هو التحقيق في الحوادث الماضية، والرأي الحديث الذي يقصر مجال التاريخ على الحوادث التي وقعت نتيجة لافعال الانسان.

---

[1] ومن الطريف ان نذكر هنا ان بعض المورخين المعاصرين في الولايات المتحدة امثال شارلس بيرد وسدني هوك حاولوا قبل بضع سنوات تحديد معاني بعض المصطلحات التاريخية. غير انهم لم يوفقوا التوفيق كله لا في تلك المصطلحات جميعا حسب بل في تحديد معنى كلمة تاريخ نفسها. لذلك اعتبروا تلك الكلمة تتضمن اكثر من معنى واحد "التاريخ كواقعية": واشياء حدثت: التاريخ المكتوب، او الكتب والمقالات التى انتجها المورخون: التأريخ المسجل. أو الوثائق التى استند عليها التاريخ المدون. التاريخ كاستفسار" دبليو.كى هاتكوك. تاريخ ازماننا. جامعة لندن. ١٩٥، ص٢.

وتطرقت في الفصل الثاني الى بحث تدوين التاريخ ودراسته مستقصيا الاساليب الشائعة في هذا الباب وبخاصة الطريقة التاريخية مع ذكر خصائصها واهميتها في استقصاء اركان الحوادث التاريخية وكيفية تدوينها والتمييز بين غثها وسمينها، والالماع الى العوامل التي تحول بين المؤرخ وبين توخي الدقة في البحث. وانتقلت الى الفصل الثالث الى البحث في تفسير التاريخ وفلسفته فعرضت بشيء من الايجاز غير المخل آراء كبار الباحثين في فلسفة التاريخ امثال هيكل وكارل ماركس وشبنكلر وتوينبي.

وناقشت تلك الفلسفات مناقشة علمية على القدر الذي سمحت لي به امكانياتي الثقافية واستلزمته طبيعة الموضوع نفسه. وبحثت في الفصل الرابع موضوع التحيز في التاريخ مبينا أسبابه ونتائجه وداعيا الى ضرورة التخلص منه. ومفترضا بعض الوسائل التي تساعد على التخلص منه ولو تخلصا جزئيا.

وفي الفصل الاخير من هذا الكتاب بحثت أساليب تدريس التاريخ قديمها وحديثها.

ويجمل بي ان أنبه القارئ الى أني اعتبر بحثي هذا قابلا للتجريح والتعديل على يدي أو يد غيري من المعنيين ببحث هذا الموضوع. وربما عدت الى تحويره واستصلاحه مرة اخرى حين يقتضيني البحث ذلك. وعلى أي حال فأن بحثي هذا محاولة اولى لولوج هذا الموضوع المتشعب الجوانب، تمهد الى محاولات ارجو ان تكون اعمق واوفى.

بغداد في ١٩٥٥/١/١

د.نوري جعفر

الفصل الاول

تعريف التاريخ وحدوده

جاء في مختار الصحاح: الجزء الاول ص:١٥ ما يلي:

ارخت الكتاب اذا جعلت له تاريخا... واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي إلى المدينة وجعلوا أول السنة المحرم. ويعتبر التاريخ بالليالي لأن الليل عند العرب سابق على النهار... فتمسكوا بظهور الهلال وانما يظهر بالليل فجعلوه ابتداء التاريخ ويقول صاحب محيط المحيط: الجزء الأول ص:٣ ما نصه: أرخ الكتاب يأرخه أرخا وقته وارخ الكتاب وآرخه ايراخا كأرخه. وورخه لغة في أرخه... والتاريخ تعريف الوقت. قيل هو قلب التأخير وقيل ليس بعربي. جمعه تواريخ وتاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي اليه... وعلم التاريخ علم يتضمن ذكر الوقائع ولا سيما ما كان منها متعلقا بالقبائل والاقاليم مع تعيين اوقاتها وبيان اسبابها ومسبباتها.

يتضح من التعريف الأول الذي ذكره صاحب مختار الصحاح ان كلمة تاريخ في اللغة العربية في آن واحد من حيث معناها كلمتي Date و History في اللغة الانكليزية. أما التعريف الثاني فقد ميز بوضوح بين التاريخ بمعنى Date وبين علم التاريخ History.

وعلم التاريخ من وجهة نظر صاحب محيط المحيط يشتمل (كما هو واضح من التعريف الذي سلفت الاشارة اليه) على وصف الوقائع الاجتماعية وتبيان الأزمان التي حدثت تلك الوقائع فيها مع ذكر العوامل التي ادت الى وقوعها.

وبما ان دراستنا هذه تنصب على البحث في موضوع التاريخ (أو علم التاريخ كلما يسميه صاحب محيط المحيط) من حيث هو أحد فروع المعرفة الانسانية (مثل الهندسة وعلم الاحياء والجغرافية الخ) فأننا سوف نستقصي ما توحيه كلمة تاريخ History للباحثين من معان في الماضي والحاضر. ولما كان التاريخ بالمعنى الذي مرت الاشارة اليه من الموضوعات التي وضع أسسها العامة بشكل واضح الباحثون الأوربيون فسوف نستعرض في دراستنا هذه آراءهم المختلفة في تعريفه وتفسيره. وقبل ان نبدأ بذلك يجمل بنا ان نشير هنا الى ان قولنا بان المفكرين الغربيين هم الذين وضعوا الأسس العامة لموضوع التاريخ بشكل واضح لا ينبغي ان يفسر بأن مفكرين آخرين من شعوب أخرى لم يساهموا في ذلك. غير ان الباحث من الجهة الثانية يجد تلك المساهمة مع هذا كله محصورة على الأغلب في تدوين الوقائع التاريخية التي تصدى المورخون لبحثها دون اهتمام كبير في بحث موضوع التاريخ وتفسيره وعوامل حدوثه وبقدر ما يتعلق الامر بمورخي العرب فانهم (بأستثناء ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وفي أجزاء خاصة من مقدمته فقط لا في المقدمة كلها بله تاريخه) يميلون في العادة الى جمع الأخبار وتكديسها وذكر الوقائع

السياسية والعسكرية وسرد أخبار الملوك والخلفاء والقادة دون تمحيص أو نقد في كثير من الأحيان ودون اهتمام إلا ما ندر بالشؤون العامة للشعوب. واذا طبقنا عليها مقاييسنا الحاضرة فأننا نجدها في العـادة مفتقـرة علـى التمحيص وبخاصة عندما تتعرض الى البحث في حوادث بعيدة غير مألوفة لدى مؤلفيها في الزمان والمكان. فمؤلفات ابن قتيبة (الـذي تـوفي عـام ٢٧٠هـ) والـبلاذري (٢٧٩هـ) واليعقـوبي (٢٨٤هـ) والـدينوري (٢٩٠هـ) والطبري (٣١٠هـ) والمسعودي (٣٤٦هـ) وابـن مـسكويه (٤٤١هـ) والخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) وابن عساكر (٥٧١هـ) وياقوت الحموي (٦٢٦هـ) وابن الأثير (٦٣٠هـ) وابن خلكان (٦٨١هـ) وأبـى الفداء (٧٣٢هـ) والمقريزي (٨٤٥هـ) ضعيفة بشكل عام فـي جوانبهـا النقدية ومقصورة على ذكر أخبار الخلفاء والوزراء والقادة. فهـي كتـب اخبار.

وفي معرض التعليق على ذلك يقول ابـن خلـدون فـي المقدمـة (ص:٤):

ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها وخلطها المتطفلون بدسانس مـن الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايـات المـضعفة الفوهـا ووضعوها. واقتفى لتلك الاثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها الينا كما سمعوها. ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها. ولا رفـضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل.

والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل. والتقليد عريق في الادميين وسليل. والتطفل على الفنون عريض طويل ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل".

وقد اطلق العرب على رواتها كلمة اخباريين تمييزا لهم عن المحدثين الذين يتخصصون في رواية الحديث. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الاخباريين لم يكونوا موضع ثقة كبيرة عند حملة الراي وارباب الفهم -وقد قيل وما آفة الأخبار إلا رواتها فلا غرو ان راينا المحدث عند جمهور ذلك الزمان اشرف موضوعا واسمى منزلة من الاخباري وكثيرا ما كان الشك يتسرب الى ما يرويه المحدث اذا ما مال الى الاخبار. وكم يكن مستحسنا ان يتوافر على طلب الأخبار الفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة. ذكر ابن خلكان في وفيات الاعيان (الجزء الرابع ص:٤٥٣) الحكاية التالية: "ان أبا يوسف كان يحفظ المغازي وايام العرب وانه مضى ليستمع المغازي من محمد بن اسحق او غيره واخل بمجلس ابي حنيفة. فلما اتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له ابو يوسف انك امام وان لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملا ايهما كان اولا وقعة بدر او احد فانك لا تدري ايهما كان قبل الآخر. فأمسك عنه.

والى القارئ طائفة من الامثلة تؤيد ما ذهب اليه ابن خلدون في وصفه لبعض من سبقه من المؤرخين ضربناها له على سبيل التمثيل لا الحصر. ذكر المسعودي في مروج الذهب (ج١ ص:١٩- ٢١) في معرض التحدث عن تاريخ الخليقة ما نصه:

"أن أول ما خلق الله الماء وكان عرشه عليه فلما أراد ان يخلق الخلق اخرج من الماء دخانا فأرتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء ثم ايبس الماء فجعله أرضا... في يومي الأحد والأثنين... وخلق الأرض على حوت... والحوت في الماء والماء على ظهر الصفا والصفا على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة على الريح... فأضطرب الحوت فزلزلت الارض فارسى عليها الجبال... في يومي الثلاثاء والأربعاء... فكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم ففتقها فجعلها سبعا في يومي الخميس والجمعة... وسماء الدنيا من زمردة خضراء والسماء الثانية من فضة بيضاء والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء والسماء الرابعة من درة بيضاء والسماء الخامسة من ذهب احمر والسماء السادسة من ياقوتة صفراء والسماء السابعة من نور. قد طبقها الله بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيما له لقربهم منه قد خرقت أرجلهم الارض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة".

وقال الطبري (ج١ ص:٨٥- ٨٦) في معرض الحديث عن تاريخ الزراعة وبعض الكائنات الحية وتطورها ما يلي:

"حدثنى الحارث بن محمد قال حدثنا ابن سعد قال أخبرنا هشام... قال نزل آدم معه ريح الجنة فعلق بشجر الهند وأوديتها وامتلأ ما هناك طيبا فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح الجنة... وأنزل معه الحجر الاسود وكان اشد بياضا من الثلج وعصا موسى وكانت من آس الجنة طولها عشرة اذرع على طول موسى... ثم ضرب التنور هو الذي ورثه نوح هو الذي

فار بالعذاب بالهند وكان آدم حين هبط يمسح رأسه السماء ومن ثم صلع واورث ولده الصلع ونفرت من طوله دواب البر فصارت وحشا من يومئذ... ثم حط من طول آدم ذلك إلى ستين ذراعا فكان ذلك طوله إلى ان مات... وقيل ان من الثمار التي جلبها آدم من الجنة ثلاثين نوعا عشرة منها في القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى... وكان مما اخرج آدم معه من الجنة صرة من حنطة... بسبع حبات... وكان وزن الحبة منها مئة الف درهم ثمنمائة درهم... فجرت سنة ولده البذر في الأرض ثم امره الله فحصده ثم امره فجمعه وفركه بيده ثم امره ان يذريه ثم اتاه بحجرين فوصد أحدهما على الآخر فطحنه ثم امره ان يعجنه ثم امره ان يخبزه ملة وجمع له جبريل الحجر والحديد فقدحه منه النار".

وكتب المسعودي (ج١ ص:٢٨) في صدد التحدث عن تاريخ النبي آدم:

"توفي آدم يوم الجمعة لست خلون من نيسان في الساعة التي كان فيها خلقه وكان عمره تسعمائة سنة وثلاثين سنة... يقال ان آدم مات عن اربعين الفا من ولده وولد ولده".

وجاء في تاريخ الأمم والملوك للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (مطبعة الاستقامة ١٩٣٩) الجزء الأول (ص:٧٦) ما يلي:

"حدثنا ابو هشام قال حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن الاعمش عن ابي صالح قال قال كعب الدنيا ستة آلاف سنة. حدثنا محمد بن سهل بن عسكر قال حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم قال حدثني عبد الصمد

بن معقل انه سمع وهبا يقول وقد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة... وهي ستة آلالف سنة" وذكر المؤلف في المصدر نفسه (ج١ص:٢١) ما يأتي:

"حدثني أحمد بن محمد بن حبيب قال حدثنا علي بن الحسن بن شفيق قال أخبرنا عبد الله بن المبارك قال أخبرنا رياح بن يزيد عن عمر بن حبيب عن القاسم بن أبي بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... أن اول شيء خلق القلم وامره ان يكتب كل شيء." وجاء في المصدر نفسه (ص:٥٥-٥٦) ما يلي:

"حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريح عن صالح مولى التوأمة وشريك بن ابي نمر أحدهما أوكلاهما عن ابن عباس قال ان من الملائكة قبيلة من الجن وكان ابليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض... فمن الأحداث التي كانت في ملك عدو الله... الذي كان من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة... وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي... وخلق الانسان من طين فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا فبعث الله اليهم ابليس في جند من الملائكة... فقاتلهم... حتى الحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال... ان الله خلق الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة."

وإذا ما استعرضنا تاريخ "التأريخ" عند الغربيين وجدناهم يختلفون كثيرا فيما بينهم في تحديد معناه ومجاله:

(١) يستعمل بعضهم كلمة "تاريخ" لتدل على جميع ما حدث من الوقائع الطبيعية والاجتماعية في هذا الكون الفسيح منذ نشوئه الى قراءة هذه السطور. والوقائع الطبيعية بنظرهم هي التي تحدث دون ان يكون للانسان اثر في حدوثها او صدها. والحوادث الاجتماعية هي تلك الحوادث التي نتجت عن افعال الانسان داخل حدود الامة الواحدة او بين الأمم في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة من سياسية وعسكرية وثقافية سواء اكانت تلك الأفعال متعلقة بالترميم او الانشاء ام بالتدمير والتخريب. ويتضمن هذا المعنى لكلمة "تاريخ" ان معرفة الانسان لما وقع من الحوادث (في جميع الازمان والأمكنة) لا تستطيع ان تستوعب الحوادث التاريخية كلها. كما يتضمن كذلك استحالة معرفة جميع حوادث التاريخ في المستقبل القريب او البعيد. اي ان المعرفة التاريخية عند الانسان اقل مما حدث فعلا. فالتاريخ اذن حسب هذا التعريف مجال واسع سعة الكون وقديم قدم الكون نفسه واما ما يعرفه الانسان من حوادثه فاقل بكثير او قليل مما حدث فعلا. وجريا مع هذا المنطق يصبح لكل شيء تاريخ فللكون الذي نعيش فيه تاريخ (بدا كما يحدثنا العالم الفلكي البريطاني سبنسر جونز قبل زهاء/٥ مليون او بليوني سنة) وللأرض تاريخ (بدأ قبل حوالي.../٢ مليون سنة) ولظهور الانسان على وجه البسيطة تاريخ (بدأ قبل حوالي مليون سنة) وللحضارة البشرية تاريخ (بدأ قبل حوالي ستة آلاف سنة)...

ولنهر دجلة تاريخ وللبرلمان البريطاني تـاريخ وللفيزيـاء تـاريخ وللأدب العربي تاريخ... الخ يتضح من ذلك ان تاريخ الانسان من وجهـة النظر هذه جزء ضئيل من التاريخ العام للكون والحياة وهو حديث التكوين نسبيا. والتاريخ بشكله العام ذو مظاهر ثلاثة مترابطة يؤثر بعـضها فـي بعض آخر ويتاثر فيه وهى تختلف فى امتدادها فى الزمان والمكان. يتألف اولها من عوالم غير متناهية لم يتمكن الانـسان الحـديث إلا إدراك جـزء ضئيل منها (بواسطة أحدث تلسكوب ذي فوهة لا يقل قطرها عن منتي انج) غير ان هذا الجزء (الذي يبدو ضئيلا بالنسبة للكون كله) مع هذا (بالنسبة لمقاييسنا) هائل الحجم بقدر طول قطرد بحوالي الف مليون سـنة ضـوئية (السنة الضوئية مقدار ما يقطعه الضوء في سنة مع العلم ان الضوء يسير بسرعـة قدرهـا.../ ١٨٦ ميل في الثانية) فيصبح قطـر هـذا الكـون المرئى إذن:

١

.../ ١٨٦ ×٦٠×٦٠ ٢٤ ٢ ×٣٦٥ .../.../...١/ ميلا.

ومعظم اجزائه مكون من اشعـاع وجزيئـات وذرات Radiations, Subatomic Paricles and Aotms أما عمـر الأرض فقـد توصل العلماء المعاصرون إلى معرفته عن طريق دراسة أعمار الـصخور المختلفة وحساب تحول بعض العناصر الفيزيائية إلى بعض آخـر.فعنـصر الأورانيوم والثوريوم مثلا (ذراتهما اثقل الذرات المعروفة) يمكن ان يتحول كل منهما إلى رصاص حسب النسبتين الآتيتين: يتحول غرام واحـد مـن

الأورانيوم الى $\frac{١}{٧٦٠٠/٠٠٠/٠٠٠}$ راما من الرصاص سنويا.

والغرام الواحد من الثوريـــــــــــوم $\frac{١}{٢٨/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠}$

في العام الواحد وبهـــــــذه الطريقـــــــة يصبح من الممكن التوصـــل إلى معرفة أعمار الصخور الارضية ذات الأورانيوم والثوريـــوم بواســطة حساب ما بها من رصاص متحول. فتوصل الباحثون في الوقت الحاضر إلى حساب أعمار متحجرات تكونت قبل زهاء خمسمائة مليــون ســـنة وقــد قسموها إلى الاقسام الثلاثة الآتية:

أ- عصر الحياة القديمة Paleozoic الذي استمر حوالي (٣٠٠) مليـــون سنة.

ب- عصر الحياة الوسطى Mesozoic الـــذي اســـتمر حــــوالي (١٣٥) مليون سنة.

ج- عصر الحياة الحديثة Cenzoic الذي استمر حـــوالي (٦٥) مليـــون سنة.

(ب) تاريخ الحياة على وجه البسيطة (حيث لا توجد حياة نباتية او حيوانية في أي مكان آخر من الكون حسب معلوماتنا العلميـــة الحاضـــرة. غير ان كثيرا من العلماء المعاصرين يعتقد أن الظروف المناخية الموجودة في المريخ في الوقت الحاضر تــشبه الظـــروف المناخيـــة لـــلأرض قبـــل حوالــــي الـــ ١٧٠٠ مليون سنة حيث ظهرت الحياة بأبسط أشكالها. وانه من الممكن ان ظهر الحياة في المريخ في المستقبل ان لم تكن قد ظهـــرت فعلا).

وتاريخ الحياة أقل سعة وأحدث تكوينا من تاريخ الكون. فعمر الحياة لا يتجاوز الـــ ١٧٠٠ مليون سنة وحجم المساحة التي تــشغلها لا يزيـــد علـــــــى الـــ ١ / ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من حجم الكون وعمر الانسان من الناحية التكوينيـــــة (من ناحية تكونيه المادي الفسلجي - البايلوجي) لا يتجاوز مليون سنة. ذلك لأن الانسان قبل هذا التاريخ (كما يحدثنا علماء الحياة) كان مخلوقا آخر قريب الشبه بكل من الانــسان الحـــديث والقـــرد. فالانسان والقرد (على حد زعم أصحاب نظرية النـــشوء والارتقـــاء التـــي ظهرت في النصف الأخير من القرن الماضي) يعودان إلى اصـــل مـــشترك. غير ان ذلك الأصل المشترك نفسه لم يكن معلوما آنذاك... وقد اطلق عليه اسم الحلقة المفقودة Missig Link وسبب ذلك ان الفـــرق بـــين التركيـــب الجسمي للانسان والقرد كبير ولا يمكن على هذا الأساس ان يكون القرد قد تطور إلى انسان. غيران البحوث الحديثة التي أجراها Dubios قبل زهـــاء قرن قد ادت الى اكتشاف جماجم انسان قديم (عاش في جاوا وبكين) قريب الشبه بالقرد والانسان من الناحية التركيبية. وقد عززت تلك البحوث بحوث جديدة قام بها كل من Dart و Broom في جنوبي افريقيـــا قبـــل خمـــسة وعشرين عاما تقريبا حيث وجدت جماجم مخلوق قريب الشبه جدا بـــالقرد والانسان الحديث. أي انه مخلوق لا هـــو بـــالقرد الـــصرف ولا بالانـــسان الصرف من ناحية تركيب جسمه. وقد اعتبر هذا المخلوق حلقة وسطى بين الانسان والقرد وانه هو الحلقة المفقودة. ويسمى هـــذا المخلـــوق علميـــا

Proto Man وكان يستعمل النار والآلات ونوعا بدائيا من اللغة. وقد عاش قبل حوالي ربع مليون سنة.

(جـ) التاريخ الاجتماعي للانسان وهو أقل سعة واحدث تكوينا من تاريخ الكون. ولا يتجاوز عمره خمسة آلاف سنة. ويمتاز هذا التاريخ على الرغم من حداثة تكوينه بظهور الحضارات البشرية القديمة والحديثة تلك التي أدت الى هذا التقدم الواضح في جميع مناحي الحياة الاجتماعية للجنس البشري.

(٢) تشتمل كلمة "تاريخ" أحيانا لتعبر عن الآثار التي يتركها وقوع الحوادث في صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع. ولا يشترط حتما حسب هذا التعريف ان يكون الانسان ملما بجميع تلك الآثار الطبيعية أو عارفا بدقائقها وتفاصيلها. أي ان التاريخ بهذا المعنى أوسع مدى مما استطاع الانسان ان يعرفه فعلا او مما في استطاعته ان يعرفه في أية فترة من فترات حياته. غير أن معرفة الانسان لجميع الوقائع التاريخية مع هذا ليست مستحيلة ذلك لأن الآثار التي تركها حدوث الوقائع التاريخية من الممكن اكتشافها في أية لحظة من لحظات الحياة. اما الآثار التي اندرست او عفت معالمها فلا تدخل ضمن موضوع التاريخ حسب هذا التعريف. وفي هذه النقطة بالذات يتميز هذا التعريف للتاريخ عن التعريف الاول الذي مرت الاشارة اليه. فالتاريخ حسب التعريف الأول كما سلف ان ذكرنا يحتوي على جميع ما وقع من الحوادث بشتى صورها ومختلف ازمانها واماكنها في الطبيعة والمجتمع بغض النظر عن مدى معرفة الانسان لتلك الآثار او امكانية معرفته الى او استحالة تلك المعرفة في الوقت الحاضر على كل حال وبخاصة في الحالات التي اختفت فيها تلك الآثار كالأوامر الشفوية التي أصدرها الملوك أو

الوزراء أو القادة أو الآثار التي تركها وقوع بعض المعارك العسكرية والتي ازالت الطبيعة او المجتمع معالمها (كالآثار التي تركها وقع أقدام جنود نابليون مثلا في طريقهم الى موسكو لاحتلالها ومحلات تجمعهم وآثار طهيهم للأكل وتنظيفهم لملابسهم وما شاكل ذلك).

(٣) وتستعمل كلمة "تاريخ" أحيانا لتدل على ما استطاع الانسان ان يعرفه من الحوادث الماضية –طبيعية او اجتماعية– ولا يشترط في هذه المعرفة ان تكون مدونة تدوينا خطيا بل تشمل –بالاضافة الى ما هو مدون على الورق أو الجلد أو الجدران من آثار بشتى اللغات ومختلف الرموز– جميع البقايا التاريخية للمعابد والكهوف والجسور والابنية على اختلاف أنواعها. ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة هو ان التاريخ بهذا المعنى أقل بكثير مما وقع فعلا –حسب التعريف الأول– واقل كذلك مما خلفه وقوع الحوادث الطبيعية والاجتماعية من آثار –حسب التعريف الثاني– ذلك لأن الاثار التي لم يستطع المؤرخ ان يصل الى معرفتها –مع فرض حدوثها– لا تدخل من وجهة النظر هذه ضمن حدود التاريخ. غير ان تلك الحوادث من الجهة الثانية يمكن ان تصبح جزء من التاريخ في المستقبل القريب أو البعيد شريطة ان يعثر الانسان عليها. فالتاريخ بهذا المعنى يتسع مجاله بأستمرار كلما اتسعت المعرفة التاريخية عند الانسان من حيث اكتشاف الانسان لوقائع لم يستطع اسلافه اكتشافها من جهة ومن حيث اتساع موضوعه مع الزمن نتيجة لوقوع حوادث جديدة من جهة اخرى. فمجال التاريخ في الوقت الحاضر مثلا اوسع منه قبل مئة عام ذلك لاتساع معرفة الانسان التاريخية في الوقت الحاضر لحوادث لم يكن ممكنا لمؤرخ عاش قبل مئة عام ان يتوصل الى معرفتها هذا من جهة

ومن جهة ثانية فأن الحوادث التاريخية التي وقعت منذ عام قد اصبحت ضمن حقل التاريخ بالنسبة للمؤرخ الحديث من جهة أخرى.

(٤) وهناك استعمال آخر لكلمة "تاريخ" وضعه على ما يظن المؤرخ اليوناني المعروف هيرودوتس وفحواه ان التاريخ يشتمل على التحقيق في الحوادث الماضية. ولا يتم هذا التحقيق من الناحية التاريخية في نظر هيرودوتس الا إذا قام به المؤرخ نفسه وسافر الى الاماكن التي يريد دراستها من الناحية التاريخية. فلا غرو ان وجدنا هذا المؤرخ يقوم بأسفار كثيرة وطويلة بالنسبة لزمانه ومكانه لكي يحقق بنفسه كثيرا من الوقائع التاريخية تمهيدا لتسجيلها بأسلوبه الكتابي وبلغته الخاصة. ويلوح للباحث ان كثيرا من مؤرخي العرب والمسلمين قد نهجوا في معرفتهم التاريخية نهجا مشابها لنهج هيرودوتس. جاء في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفي ٣٤٦هـ (دار الرجاء للطبع والنشر) ج١ ص:٢ ما يلي:

"على أنا نعتذر من تقصير ان كان ونتنصل من اغفال أو عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواطر الأقاليم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج... والصين... واذربيجان والعراق... كما قال بعضهم:

تيمم أقطار البلاد فتارة ... لدى الشرق منها وطورا إلى ...
سرى الشمس لا ينفك تقذفه ... إلى أفق ناء يقصّر بالركب"

ومن الطريف ان ننبه القارئ هنا إلى ان الكلمة اليونانية التي استعملها هيرودوتس لتعبر عن التاريخ تتضمن المعاني التالية: البحث Research والأعلام Information والجوب أو التجواب .Exploration غير ان جمهرة من المؤرخين الذين جاؤا من بعده قد اعتبروا التاريخ ما دونه هيرودوتس نفسه (على حين ان هيرودوتس نفسه كما سبق ان ذكرنا قصر التاريخ على الحوادث التي استطاع ان يحققها بعد التثبت من صحتها. اما تدوين تلك الحوادث بعد التثبت من صحة وقوعها فشئ آخر حسب رأي هيرودوتس.) فلا غرو ان رأينا المؤرخين اليونان الذين جاؤا من بعده يستعملون كلمة يونانية للتاريخ تتضمن ما توصل البحث اليه او نتائج البحث. وإذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الفرق بين معنى التاريخ عند هيرودوتس ومعناه عند المؤرخين اليونان الذين جاؤا من بعده ينحصر في التاريخ في الحالة الأولى يتضمن الأسلوب أو الطريقة مضافا اليها الحوادث التي حققها المؤرخ بذلك الاسلوب. على حين ان التاريخ في الحالة الثانية ينصب على نتيجة البحث أو موضوعه فقط. ولعل من المناسب ان نشير هنا إلى ان الرأي القائل بأن التاريخ هو ما كتبه هيرودوتس قد انتقل بدوره الى اللغات الأوربية الحديثة -ولهذا سمي هيرودوتس أبا التاريخ.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان تعريف التاريخ عند ابن خلدون يقرب كثيرا من حيث الأساس الى تعريفه عند هيرودوتس. جاء في المقدمة (مطبعة مصطفى محمد في القاهرة) ص:٣- ٤ ما يلي:

"أما بعد فأن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال وتشد اليه الركاب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس في الملوك والاقيال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره

لا يزيد عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".

(٥) وبمرور الزمن أخذت كلمة "تاريخ" تستعمل للدلالة على جميع الحوادث التي وقعت نتيجة لافعال الانسان في مختلف صورها وتعدد مجالاتها. اما الحوادث الطبيعية فتدخل ضمن موضوعات المعرفة المختلفة: فتأريخ الشمس مثلا يمكن ان يدرس ضمن موضوع علم الفلك وتاريخ الأرض ضمن موضوع الجيولوجي وتاريخ الحياة ضمن موضوع علم الاحياء الخ... هذا من جهة ومن جهة ثانية فأن التاريخ من الناحية الاجتماعية يمكن ان ينقسم الى اقسام كثيرة: فتارة يقسم حسب زمانه إلى تاريخ قديم ومتوسط وحديث. وطورا يقسم حسب موضوعه إلى تاريخ سياسي وعسكري وثقافي الخ. وطورا يقسم الى تاريخ للعرب والالمان والفرنسيين.. وكل قسم من الأقسام الآنفة الذكر يمكن أن يصنف بدوره الى اصناف أخرى وهذه بدورها إلى أصناف أخرى وهكذا. وكلما اتسعت المعرفة الانسانية للتاريخ وتوغل الاختصاص زاد عدد تلك الأقسام.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان المعنى الاجتماعي للتاريخ هو المعنى المتفق عليه في الوقت الحاضر. غير ان ظهوره من الناحية التاريخية بشكل واضح يمكن ان يعزى إلى القرن التاسع عشر حيث اقترن اسم التاريخ بالوثائق Documents - أي الاثار Traces التي تتركها افعال الانسان في الطبيعة وفي المجتمع. واذا انتفى وجود تلك الوثائق (كما يقول المورخان الفرنسيان لونكلواو سينوبو) انتفى وجود التاريخ No Documents, No History. واننا في هذه الدراسة سوف نجعل التاريخ بهذا المعنى المحدد اساسا للبحث. غير ان هذا التعريف

للتاريخ مع هذا لا ينبغي ان يفسر بأنه هو التعريف الصحيح وان التعاريف الاخرى جميعها مغلوطة او غير دقيقة ذلك لصعوبة وضع مقياس علمي دقيق متفق عليه لقياس صحة تعريف بالنسبة لتعريف آخر. ان جل ما يمكن ان يقال فى هذا الصدد هو اننا نميل الى تفضيل التعريف الاجتماعي للتاريخ على غيره من التعاريف التي بحثناها وان عوامل التفضيل في العادة لا تخلو من جوانب ذاتية تختلف باختلاف الافراد.

اهم مراجع الفصل الأول

1. cohen, Moris R, The Meaning of Human History, The Open Court Publishing Company, 1947.
2. Darwin, Charles Galton, The Next Million Years, London, Pupest Hart- Davis, 1952
3. Dingle, Herbert, The Scientific Adventure London, Pitman, 1952
4. Huxley, Julian, Evolution in Action, London, Chatto and Windus 1953.
5. Jones Sir Harold Spencer, Life on Other Worlds, London, Engilish University Press, 1952.
6. Longlois, Ch. V. and Seignobos, Ch. Introduction to the Study of History, London, Duckworth, 1932.
7. Mead George H. Movements of Thoughts in the Nineteenth Century, Chicago, University of Chicogo Press, 1936.
8. Renier J.G History: Its Purpos and Method, London, George Allen and Unwin, 1950.
9. Walsh, W.H An Introduction to Philosophy of History, London, Hutchinsons Unversiy Library, 1951.
10. Whitehead, Alfred horth, Adventure of Ideas, New York, the Macmillan Company, 1946.

الفصل الثاني

تدوين التاريخ ودراسته

يدون المؤرخون في العادة حوادث التاريخ بعد وقوعها بزمن طويل أو قصير. وكلما بعد الزمن أو المسافة بين وقوع الحادثة التأريخية وبين تدوينها (لغرض الاحتفاظ بها أو نقلها من شخص إلى آخر أو من مكان إلى مكان أو من جيل إلى جيل) أصبح من الصعب توخي الدقة في تسجيلها. وإذا سلمنا بذلك أصبح بمقدورنا القول بأن المؤرخ الذي يستطيع ان يدون الحوادث (القريبة منه في الزمان والمكان) التي يشهد وقوعها بشكل مباشر من المحتمل ان يكون اكثر دقة من المؤرخ الذي يدون حوادث بعيدة عنه في الزمان أو المكان او فيهما معاً. غير ان المؤرخ القريب من الحادثة من الجهة الثانية كثيراً ما يفتقر تسجيله إلى الدقة والامانة وبخاصة (١) في القضايا التاريخية التي تتصل بعقائده الدينية أو المذهبية أو السياسية (٢) في الحوادث التاريخية التي لا يستطيع ان يستوعب جميع تفاصيلها وملابساتها (٣) في الأمور التي تتصل بالسلطة الحاكمة في عهده. وكلما كان الضغط الفكري في عهد المؤرخ شديداً صعب كثيراً عليه ان يقوم بواجبه على وجهه الاتم. ولعل افتقار كثير من المؤرخين إلى الدقة أو النزاهة أو اليهما معاً هو العامل الرئيس الذي دفع نابليون بونابرت إلى

أن يصف التاريخ بأنه "خرافة متفق عليها" History is a fable agreed on

وربما كان هو كذلك أحد الدوافع التي جعلت المؤرخ الانكليزي المعروف Gibben يعتبر التاريخ "مشتملا في الأعم الاغلب على تسجيل جرائم الجنس البشري وخرافاته ومحنه" History is little more than the register- er of the crimes, follies and Misffortunes of mankind.

ومن الجائز أيضا ان يكون هو الذي حدا بالشاعرين العراقيين أحمد الصافي والرصافي إلى القول:

احرق التاريخ إلا ما حوى من حكم
إنما التاريخ رمز لاختلاف الأمم
ينبش الاحقاد من عصر قديم مظلم
ويثير الحرب بالذكرى لمسفوك الدم
جف ذاك الدم لكن ظل يجري في الفم
مشعل في كل نفس ثورة المنتقم
ترك التاريخ جرحا ماله من بلسم
يدفع العرب بلا ذنب لحرب العجم

احمد الصافي

لقد خامرتني في الزمــان وأهلــه شــكوك عليهــا يعــذر المتزنــدق

أرى الــدهر فــي امــرين دائبــا صــناع اليــدين فيهمــا يتــأنق

يجدد للمــوتى مناقــب لــم تكــن لــديهم وللاحيــاء يبلــي ويخلــق

ورب امريء قد عــاش يــستقطر فلمــا قــضى ســال الثنــا يتــدفق

أرى كل ميت مــا تقــادم عهــده تقــام لــه ســوق الثنــاء فتنفــق

اذا شط جيل خط من جــاء بعــده أكاذيــب عنــه بالثنــاء تــزوق

فما كتب التاريخ في كل ما حــوت لقرائهــا إلا حــديث ملفــق

نظرنا لأمــر الحاضــرين فرابنــا فكيــف بــأمر الغــابرين نــصدق

أبت كتب التاريخ للحــق ملتقــى فبينهما من زخرف القــول موبــق

فان شرقت في الحق فهو مغــرب وان غربت في الحق فهــو مــشرق

كذاب على وجه الطروس مــسطر يغص به العقــل الــسليم ويــشرق

فدع عنك لغو الناطقين وخذ بمــا رواه من الآثار مــا لــيس ينطــق

فان ذكروا النعمان يوما فلا تثــق بأكثر ممــا قــال عنــه الخورنــق

الرصافي

اما أهم العوامل التي تحول دون توخي الدقة في البحث التاريخي فيمكن ان نجملها على الوجه التالي:

١- تشبع كثير من الحوادث التاريخية بعوامل دينية او مذهبية أو عنصرية او قومية تشبعا تختلف درجته بأختلاف نوع الحادثة التاريخية من جهة وأهميتها بالنسبة للباحث من جهة أخرى. والناظر لبعض الحوادث التاريخية قد لا يراها الا بعواطفه على الرغم من سلامة تفكيره وبصره. واذا علمنا ان دقة رؤية الانسان للاشياء المادية (بله الفكرية والاجتماعية) لا تتوقف على سلامة العينين فقط وانما تتعداها الى المكان الذي ينظر منه ذلك الانسان الى الشيء والى النقاط التي يرتكز فيها بصره اكثر من غيرها والى وضوح الشيء المنظور بالنسبة له والى المسافة بينهما وأشياء اخرى... تبينت لنا صعوبة توخي الدقة عند البحث في الحوادث التاريخية. وتلعب اللغة دورا فعالا في هذا الصدد. فكثير من الكلمات التي يستعملها المؤرخون تثير احساسات عاطفية تختلف درجاتها باختلاف مدلولاتها ومدى تعلق الانسان بتلك المدلولات.

٢- وتتلخص الصعوبة الثانية في ان البحث في الحوادث التاريخية يكون في العادة ممزوجا بميل متصل بالاستحسان او الاستقباح. أي ان الحوادث التاريخية لا ينظر اليها الانسان نظرة موضوعية مجردة وانما هو (حتى في محاولته تجنب التحيز) قد يستحسن وقوع بعضها فينعته بنعوت رقيقة ويستقبح وقوع بعض آخر فيخلع بعض الصفات المستهجنة عليه. ونظرة المؤرخين القدامى والمحدثين الى الثورات

والعصيانات والاضطرابات كلها امثلة من هذا القبيل. ويتضح ذلك كثيرا اذا تذكرنا ان الباحث في الظواهر الطبيعية لا يتعرض لشيء من هذا القبيل. فالكيميائي مثلا لا يستحسن اتحاد ذرتين من الهايدروجين مع ذرة من الاوكسجين عند تكوين الماء ولا يستهجنه. ولا ينتقد الاوكسجين مثلا في سلوكه العام كعدم تفاعله مع مواد كيميائية اخرى او مساعدته على الاشتعال الخ... ان الكيميائي لا يفعل ذلك لان دراسته كما يرى تنصب على وصف ما يشاهده وصفا دقيقا. وبعبارة اخرى لا تدخل عواطف الكيميائي في تقرير نتائج بحثه على حين ان المشتغل بالقضايا التاريخية لا يستطيع التجرد عن عواطفه مطلقا وان جل ما يستطيع أن يفعله اذا ما أراد ان يتوخى النزاهة والدقة في بحثه هو ان يسيطر على بعض عواطفه فيخفف من حدتها.

٣- والصعوبة الثالثة المتعلقة بافتقار المؤرخ الى الدقة في البحث ناتجة عن ان الباحثين في الحوادث التاريخية يحاولون التوصل الى ما يسمونه طبيعة الاشياء. لقد حاول عبثا قبلهم زملاؤهم الباحثون في الظواهر الطبيعية. ولم يتقدم البحث الدقيق في مجال العلم كما سنشير الى ذلك الا بعد ان خلع انصاره عن انفسهم فكرة البحث في طبائع الاشياء واهتموا عوضا عن ذلك بالبحث في علاقاتها ومظاهر سلوكها.

٤- والصعوبة الرابعة تتصل بتعقد الظواهر التاريخية وتشابكها من جهة وخضوع الباحث لها لا خضوعها له من جهة ثانية. فالعالم الطبيعي في بحثه في الظواهر الطبيعية (فيزيائية او كيميائية) يبحث في أمور يستطيع السيطرة عليها فيخضعها لمشيئته على حين ان المؤرخ يحاول ولوج قوى هو خاضع لها. هذا الى ان الباحث في الظواهر الطبيعية كما

سلف ان ذكرنا يستطيع تجريد تلك الحوادث عن بعضها واحداث تغييرات كبيرة في علاقاتها وسلوكها. اما الباحث في الظواهر التاريخية فليس باستطاعته ان يفعل ذلك نظرا لتداخل تلك العوامل تداخلا يستحيل معه فصلها عن بعضها. فأذا سهل على الكيمياني ان يحلل الماء في المختبر الى عناصره الاولى فانه يستحيل على المؤرخ أن يعزل أثر العامل الديني عن أثر العامل الاقتصادي او الجنسي الخ... في تقرير سلوك الافراد او الجماعات.

هـ- والصعوبة الخامسة ناتجة من ان المؤرخ في العادة ينتقي من الحوادث التاريخية تلك التي تلائمه وتتفق هي ووجهة نظره. واذا ما حاول ان يعرض حادثة لا تتفق هي ووجهة نظره فأنه يميل (ولو بطريقة لا شعورية) الى وضعها بشكل يبين ضعفها وعدم وجاهتها. ذلك لان الحوادث التاريخية ليست موجودة في الطبيعة بالشكل الذي توجد فيه الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والاوكسجين الخ... بل هي موجودة بشكل يقرر أهميته المؤرخ نفسه.

ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان ابن خلدون ذكر في مقدمته بعض العوامل التي تحول بين المؤرخ وبين الدقة والنزاهة في البحث. جاء في المقدمة: ص: ٩-١٠ "اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على احوال الماضي من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا... وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وايمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا ولم يعرضوها على اصولها

ولا قاسوها باشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط" ويستطرد ابن خلدون في تفصيل عوامل تسرب الخطأ الى البحث التاريخي فيقول في المقدمة ص٣٥-١١ "ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للاراء والمذاهب. فان النفس اذا كانت على حال من الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه. واذا خامرها تشيع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاء والتمحيص. فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين... ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف المقصد بما عاين او سمع. ونقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب. ومنها توهم الصدق. ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق نفسه. ومنها تقريب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقته. فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها".

واذا سلمنا بان التاريخ سجل لما وقع من الحوادث جاز لنا ان نقول ان المؤرخين يورخون حوادث التاريخ اما اثناء وقوعها او بعد ذلك بزمن قصير او طويل. وتسجيل الحوادث اثناء وقوعها امر نادر الحدوث ويقوم

بذلك في العادة من نسميهم شهود العيان وهم قليلون. فالمؤرخ في الاعم الاغلب لا يصف ما وقع تاريخيا بشكل مباشر وانما يستدل على وقوعه بأن يلجأ الى الاستفسار ممن شهد ما وقع او سمع أو قرأ عما وقع أو شاهد بقايا ما وقع الخ... وهو في جميع هذه الأحوال يدرس الحادثة عن طريق فحصه لآثارها. تلك هي مصادر البحث عند المؤرخ Sources وهي مخلفات السلف من كتب وقصص وتماثيل وصور ومخطوطات ومبان وجسور ومعابد وهياكل ورمم وما شاكلها.

تقسم المصادر التي يستقي منها المؤرخ معلوماته التاريخية الى قسمين:

(١) الجانب المادي (٢) محتوياته (ان وجدت). ويدعى القسم الثاني بالتقاليد Traditions والقسم الأول بالبقايا أو المخلفات remains. والتقاليد هي معاني الرموز المكتوبة أو المروية وهي كذلك ما تعبر عنه الرموز أو تشير اليه أو تدل عليه وما هو على شاكلتها. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول إن ادخال الرسوم والخرائط ضمن التقاليد يكون كذلك من حيث دلالتها ومعانيها أو محتوياتها الفكرية. أما المادة التي نعمل منها تلك الخرائط أو الرسوم فتدخل ضمن البقايا كما هو واضح. فالخرائط إذن تقاليد (من ناحية دلالتها) وبقايا من ناحية المادة التي صنعت منها. فهي إذن تقاليد وبقايا في آن واحد. شريطة ان يكون من الممكن قراءتها وحل رموزها ولو من قبل المختصين وبعد جهد كبير. اما إذا زالت جميع المعالم التي تعبر عنها الخرائط وبقيت تلك الخرائط على شكل قطع من الورق أو القماش فانها تقع ضمن البقايا وتخرج عن حظيرة التقاليد.

اما المخلفات فهي (كما يدل عليها اسمها) متعلقة بما تبقى من المباني والجسور والطرق والمعابد واضرابها. غير ان تقسيم المصادر التاريخية الى تقاليد ومخلفات ليس حاسما ذلك لأن المخلفات أكثر شمولا واوسع رقعة من التقالد. فالتقاليد في العادة نوع من أنواع المخلفات ولا عكس. فالجسر (أو القصر) يقع في حقل المخلفات اللهم إلا اذا وجدت على جدارنه نقوش أو كتابات فانه يصبح بالاضافة إلى ذلك نوعا من أنواع التقاليد. والكتاب نوع من أنواع المخلفات والتقاليد في آن واحد. فهو مخلف من حيث كيانه المادي وهو تقليد من ناحية محتوياته. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول إن جميع التقاليد تدخل ضمن مجموع المخلفات وليس جميع المخلفات تقاليد.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالوثائق التاريخية المكتوبة والكتب التاريخية المخطوطة أو المطبوعة فأنها يمكن ان تقسم من حيث أهميتها التاريخية على قسمين:

مصادر اساس Primary or Original Sources

مصادر ثانوية أو مشتقة Secondary or Derived Sources

تمتاز المصادر الأساس بأنها تعبر عن حوادث التاريخ تعبيرا مباشرا. فاذا كانت تلك المصادر مكتوبة اشترط فيها ان يكون كاتبها جزء من الحادثة التي وصفها أو انه كان قد شاهدها مشاهدة عيانية. ولعل من المناسب ان ننبه القارئ هنا على انه ليس كل شاهد عيان مؤرخا وان شاهد العيان من المؤرخين لا يستطيع ان يلاحظ الحادثة التاريخية كلها بل هو يلاحظ اجزاء متناثرة منها. والمصادر الأساس (غير المكتوبة) اما ان تكون بقايا مادية مباشرة كالاهرام والمدرسة المستنصرية ومكتبة اللوفر أو

طرقا أو جسورا أو أدوات او ملابس أو بقايا انسانية أخـرى. ويمكـن ان تكون تلك المصادر (في حالة كونها مكتوبة) امـا علـى هيئـة كتـب أو مذكرات شخصية أو تقارير أو مسودات قانونية أو أوامر أو معاهـدات أو قرارات أو شرائع.

أما المصادر الثانوية أو المشتقة فهي تعبر عن حوادث التاريخ تعبيـرا غير مباشر. وهي تعتمد في العادة على المصادر الاساس في محتوياتهـا. وكثيرا ما تكون تلك المصادر معتمدة على مصادر ثانوية اخـرى فتـدعى tertiary أي المصادر التي تستند الى مصدر ثانوي مـستند بـدوره الـى مصدر أساس. او ان تكون المصادر الثانويـة مستندة الى مصدر ثانوي هو بدوره مستند الى مصدر ثانوي آخر وهكذا. فاذا اعتبرنا تـاريخ الطبـري لغرض البحث مثلا مصدرا أساسا فأن المؤرخ الذي ينقل عنه يعتبر بالنسبة له مصدرا ثانويا والمؤرخ الذي ينقل عمن نقل عن الطبري يعتبر تاريخـه مصدرا ثانويا كذلك وهكذا.

ان تقسيم المصادر الى مصادر اساس وثانوية لا ينبغي ان يفسر بانـه تقسيم حاسم في جميع الاحوال ذلك لأن كثيرا من المـصادر تحتـوي فـي العادة على الجانبين معا فهي بعض فصولها او اجزاء من فصولها مصادر اساس وفي فصول اخرى او اجزاء منها مصادر ثانوية او مشتقة. قليلون هم المؤرخون الذين يحصرون بحوثهم التاريخية بما يشاهدونه بأنفسهم اما غالبية المؤرخين فتكون ملاحظاتهم عادة ممزوجة بملاحظات غيرهم كمـا سمعوها منهم او قرأوها عليهم. وعلى هذا الاساس يمكن ان يكون المصدر نفسه في بعض الحالات مصدرا أساسا وفي حالات أخرى ثانويا.

يتبع المؤرخون في تحليلهم للمصادر التاريخية ودراستها ما يدعى بالطريقة التاريخية Historic Method. ولهذه الطريقة ركنان متلازمان ليس من السهل فصلهما غير ان التمييز بينهما ممكن. فهما كوجهي قطعة العملة يستطيع المرء تفريقهما عن بعضهما إلا أنه يستحيل عليه ان يفصلهما عن بعضهما ما لم يحدث الباحث تغييرا أساسا في قطعة العملة التي يجري عليها ذلك التغيير يدعى الركن الأول منهما بركن النقد Criticism والثاني بركن التوحيد او التلاؤم Synthesis. والنقد على نوعين:

نقد داخلي Internal ونقد خارجي External. يتناول النقد الخارجي البحث في صحة المصدر ومدى الثقة التاريخية في الاعتماد عليه. ولكي يكون النقد الخارجي مستوفيا شروطه الأساس يلجأ المؤرخ في العادة إلى محاولة الاجابة عن أسئلة كثرة منها:

هل هذا المصدر مصدر أساس؟ هل هو ثانوي؟ وإذا كان المصدر أساسا فهل طرأ عليه شيء من التغيير؟ هل النسخة المطبوعة (في حالة وجودها) هي النسخة المخطوطة بخط المؤلف نفسه؟ أم انها مطبوعة عن نسخة اخرى؟ هل النسخة المخطوطة هي بخط المؤلف نفسه؟ كيف نعرف ذلك؟ ما حقيقة النسخ المخطوطة هل تعود جميعها إلى نسخة واحدة؟ ما عمر كل منها؟ هل توجد فيها اختلافات؟ ما نوع تلك الاختلافات؟ وما عوامل حدوثها؟ هل ان جميع محتويات المخطوط واضحة ومقروءة؟ أم أن بعضها غير واضح؟ ما هو موقفنا أزاء غير الواضح منها؟ هل هناك طعون في صحة المصدر؟ هل المصدر منتحل؟ وما عوامل ذلك الانتحال وعلاماته؟ هل ان المصدر مدسوس فيه؟ وما عوامل ذلك الدس وعلاماته؟ هل هذه النسخة

بالذات هي النسخة الأصلية؟ أم أنها منسوخة أو مطبوعة؟ هل ان تغييرا على المصدر كله أو بعضه؟ ولكي يكون النقد الخارجي دقيقاً وعلميا ينبغي ملاحظة نوع الخط والحبر والورق وعمر كل منها ان امكن.

أما النقد الداخلي Internal or higher criticism فيبحث في محتويات المصدر بعد تقرير صحته. ولكي يكون مستوفيا شروطه الأساس يحاول المؤرخ الاجابة عن أسئلة كثيرة منها: ما ميول المؤرخ الدينية أو المذهبية أو السياسية؟ هل المؤرخ يصف الحوادث التاريخية وصفا دقيقا؟ أم أنه يصدر أحكاما معينة عليها أو على بعضها؟ لماذا أصدر المؤرخ حكما معينا في قضية معينة؟ هل ان المؤرخ منصف في حكمه هذا؟ هل يمكن القول بأنه لو كان المؤرخ يميل الى طائفة دينية غير طائفته أو أنه يحمل رأيا سياسيا غير رأيه أو انه لو عاش في ظروف غير الظروف التي عاش فيها لكان من المحتمل ان تختلف أحكامه التاريخية؟ ما موقف السلطة الحاكمة في حينه من القضية التي يعالجها المؤرخ؟ هل هناك حرية للرأي في زمانه يمكن الاطمئنان اليها في بحث القضايا التي لا تتفق هي والسياسة العامة للفئة الحاكمة؟ هل المؤرخ يميل إلى المبالغات والتهويل؟ هل المؤرخ أديب في أسلوبه؟ هل أن كلماته محدودة المعاني أم أنها تحتمل أكثر من معنى واحد؟ هل ان معاني بعض الكلمات التي إستعملها ما زالت كذلك الآن؟ هل المؤرخ يعرض أكثر من وجهة نظر واحدة في القضايا التاريخية ويناقشها أم أنه يكتفي بعرض ما يراد صوابا؟ هل يعرض رأيه بشكل جازم لا يحتمل الخطأ أو الصواب؟ أم انه يعرض ذلك الرأي بشكل فرضي قابل لأن يوصف بالخطأ أو الصواب؟ هل المؤرخ مؤمن بما يقول؟ هل كان المؤرخ في وضع يساعده على المعرفة الصحيحة؟ هل المؤرخ دقيق الملاحظة؟ هل كانت لديه

الرغبة والقدرة على توخي الامانة في تسجيل ما رآه أو سمعه أو قرأ عنه؟ هل ان استنباطاته سليمة؟ هل تستند أحكامه إلى مقدمات تؤدي اليها من الناحيتين المنطقية والواقعية؟ ولكي يستوفى النقد الداخلي شروطه الأساس كاملة ينبغي ان تدرس فلسفة المؤرخ وحياته وخلقه وأسلوبه في البحث وطبيعة الموضوع الذي بين يديه وصلته بالظروف العامة المحيطة به.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الاغراق في النقد بنوعيه كثيرا ما يؤدي إلى عكس الغاية من استعماله فيصبح عقبة كؤدا في سبيل استجلاء بعض الحقائق التاريخية بدلا من ان يكون عاملا من العوامل المساعدة على التحليل العلمي الدقيق. يضاف الى ذلك ان لقسم من الكتاب والمؤرخين براعة خاصة في وضع كثير من الاوهام والاكاذيب بشكل يجعلها تبدو كأنها حقائق. كما ان لبعضهم القدرة على تقمص شخصية قسم من المؤرخين المعروفين وتقليد اسلوبه في الكتابة والتعبير الامر الذي يجعل امر التفريق بين الغث والسمين في هذا المضمار صعبا ان لم يكن مستحيلا.

مراجع الفصل الثاني

المصادر التي ذكرت في الفصل الاول وبخاصة المصدر الاول والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر مضافا اليها:

Johnson, Henry, Teaching of History, New York, The Macmillan Company, 1948 وبخاصة الفصل الاول والفصل الخامس عشر.

الفصل الثالث

تفسير التاريخ وفلسفته

كلمة تمهيدية

لقد حاول كثير من المفكرين الغربيين في الماضي والحاضر ان يبحثوا في العوامل التي تجعل وقوع الحوادث التاريخية ممكنا من جهة وتغير مجرى الحياة بمعناها الاجتماعي من جهة أخرى. ومن أشهر هؤلاء (وهم كثيرون) هيرودوتس (٤٨٤- ٤٢٥ق.م) وأفلاطون (٤٢٨- ٣٤٨ق.م) وارسطو (٣٨٤- ٣٢٢ق.م) من فلاسفة اليونان وفيكو (١٦٦٨- ١٧٤٤) الايطالي وهيردر (١٧٤٤- ١٧٠٣) وهيكل (١٧٧٠- ١٨٣٢) وكارل ماركس (١٨١٨- ١٨٨٣) وشبنكلر (١٨٨٠- ١٩١١) الالمان وكومت (١٧٩٨- ١٨٥٧) الفرنسي وبكل (١٨٢١- ١٨٦٢) وكارليل (١٧٩٥- ١٨٨١) وتوينبي (١٨٨٩-) الانكليز ونيكولاي دانيلفزكي الروسي الذي عاش في القرن الماضي.

غير ان هؤلاء المفكرين (وان اختلفوا كثيرا في فلسفاتهم الاجتماعية) من الممكن ان يصنفوا إلى مجاميع مختلفة فيما يتصل بفلسفاتهم التاريخية وبخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الاسس العامة لتلك الفلسفات واغفلنا (لغرض البحث) الاختلافات في التفاصيل والأجزاء. وإذا سلمنا بذلك أمكننا

ان نقول ان كلا من هيرودوتس وأفلاطون وأرسطو وبكل (مع اختلاف في الدرجة) قد أشار الى اثر العوامل الجغرافية (من تربة ومناخ وما شاكلهما) في مجرى التاريخ. على حين ان كلا من هيرودوتس (وان لم يغفل أثر العوامل الجغرافية) وهيكل وكارليل ذهب الى القول بأن أحداث التاريخ ناتجة في جوهرها بعد التحليل الدقيق من أعمال الأبطال والزعماء السياسيين والعسكريين. وذهب ماركس الى تفسير التاريخ تفسيرا ماديا اقتصاديا. وقال كل من فيكو وكومت ودانيلفزكي وشبنكلر وتوينبي بأن أحداث التاريخ تسير وفق نظام خاص وترتيب معين لا تحيد عنه متبعة قوانين خاصة. وتسهيلا للبحث يمكننا ان نطلق على التفسيرات الآنفة الذكر بحسب تسلسلها الأسماء التالية:

١ – التفسير الجغرافي للتاريخ.

٢ – التفسير الروحي للتاريخ.

٣ – التفسير المادي للتاريخ.

٤ – التفسير الدوري للتاريخ Cyclic.

واتماما للبحث نرى ضرورة التطرق الى بحث كل منها بشيء من الايجاز غير المخل.

* * *

١ - التفسير الجغرافي للتاريخ

يتلخص هذا الرأي في القول بأن العوامل الجغرافية من مناخ وأمطار وموقع وجبال وانهار وتربة وثروة معدنية ونباتية وما شاكلها هي العوامل الرئيسة في تغيير مجري التاريخ البشري ونقل الحضارة الانسانية من مكان الى مكان. أي أن تلك العوامل بمجموعها (مع اختلاف في نسبة اثر بعضها بالنسبة لبعض آخر) هي التي تجهز الانسان بالمقومات العامة التي تجعله بوضع يستطيع معه ان يغالب الطبيعة والمجتمع. وهي التي تقرر فيما اذا كان باستطاعته ان يتغلب على العقبات الطبيعية والاجتماعية التي تعترض سبيل تقدمه. وتعود جذور هذا الرأي الى قسم من علماء اليونان وفلاسفتهم وفى مقدمتهم أبو قراط وأرسطو فقد ذكر ذلك أبو قراط (المعروف بأبي الطب) في نشرته المسماة "في اثر الهواء والماء والمكان فى الجسم"، كما المع ارسطو اليه في كتابه الموسوم بالسياسة حيث اعتبر التقدم اليوناني في التفكير والسياسة نتاج العوامل البيئية الناتجة عن الموقع الوسط الذي تحتله بلادهم بين الشرق والغرب (آسيا واوربا) الأمر الذي جعلها بنظرة معتدلة في مناخها ومن ثم جعل اهلها معتدلين كذلك في اخلاقهم وتصرفاتهم. ومن ثم انتقل البحث في هذه الناحية الى العلماء الرومان وبخاصة سترابو الذي حاول ان يعزو التقدم الروماني في عهده إلى عوامل جغرافية. ومن المناسب ان نشير هنا إلى ان ابن خلدون كان يجنح فيما يتصل بتفسيره للتاريخ نحو الايمان بهذا الراي من حيث المبدأ. لذلك نراه قسم الكرة الأرضية لغرض البحث التاريخي إلى سبع مناطق

جغرافية وكان غرضه من ذلك على ما يبدو هو ان يغزو التقدم الذي احرزه العرب أثناء ظهور حضارتهم الاسلامية إلى كونهم كانوا يعيشون من وجهة نظره في منطقة جغرافية ذات مناخ ملائم. غير ان ابن خلدون مع هذا يحدد لنا صفات المناخ الملائم. ولعله كان يقصد المنطقة الجغرافية ذات المناخ المعتدل حسب مقاييسه الخاصة آنذاك.

كتب ابن خلدون في المقدمة (ص:٥٢):

"اعلم ان الحكماء قسموا هذه المعمورة على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما. فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء يحده من الجنوب. وليس وراءه هناك الا القفار والرمال... ويليه من جهة شماليه الأقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى ان ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقليم في جهة الجنوب إلا ان الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب" وفي معرض التحدث عن أثر العوامل الجغرافية في التاريخ يذكر ابن خلدون في المقدمة ص:٨٢:

"ان المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسط لافراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا. فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي حافته من الثالث

والخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والأول والسابع أبعد بكثير. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوص بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا واخلاقا وأديانا حتى النبوءات فأنما توجد في الأكثر فيها" ويستطرد ابن خلدون في بحثه هذا إلى أن يقول ص:٨٣:

"وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه... وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل أهل الاقاليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة... ويلح القيض عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر. ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها أيضا البياض... ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وصهوبة الشعور. وتوسطت بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر. والرابع أبلغها في الاعتدال لنهايته في التوسط" ويلوح لي ان ابن خلدون يرد في بداية الفقرة التي اقتبسناها منه على المسعودي ومن ذهب مذهبه من المؤرخين في تفسير سواد البشرة عند الزنوج. فقد ذكر المسعودي (مروج الذهب ومعادن الجواهر ج١ ص:٢١ما يلي:

"... ثم شاء الله ان يخلق آدم... ثم بعث جبرئيل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك ان تنقصني فرجع ولم يأخذ منها شيئا... فبعث الله ملك الموت... فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك خرج بنو آدم مختلفي الألوان... وتركه حتى صار طينا لازبا... أربعين سنة ثم تركه حتى انتن وتغير أربعين سنة... ثم صوره وتركه بلا روح... حتى أتى عليه منة واربعون سنة..."

ولعل ابن خلدون كان قد تأثر بالآراء الجغرافية الشائعة في زمانه والتي ترجع أصولها إلى من سبقه من المؤرخين والكتاب من العرب والرومان واليونان. فآراء أرسطو في هذا الباب واضحة للعيان حيث كانت الأساس الذي بنى عليه آراءهم علماء الرومان وبخاصة سترابو المتوفى ٢٤ ب.م الذي اعتبر الأرض مؤلفة من خمس مناطق: واحدة حارة لا تلائم العمل المستمر لشدة حرارتها واثنتين باردتين لا تلائمان العمل المستمر لشدة برودتهما واثنتين معتدلتين صالحتين للتقدم والعيش الرغيد. ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان المسعودي (في ذكر أرباع العالم والطبائع) يذكر علتين لخلو بعض المناطق من السكان: "أحداهما افراط الحر واحراق الشمس لكثرة تواتر شعاعها على الأرض جعلتها يابسة وإنما جفت مياهها لكثرة التنشيف. والعلة الاخرى بعد الشمس عن الاقليم وارتفاعها عن حوازته فأكتنف تلك الارضين البرد واستوى عليها القر والجدب... فصارت تلك البلاد قاعا صفصفا من الحيوان والنبات" ويروي المسعودي عن ابيقراط بشيء من التفصيل انه قال "بأن قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء وان للمناخ أثرا بليغا في تكوين الأخلاق والأجسام..."

ولعل من المناسب ان ننبه القاريء إلى ان مونتسكيو حاول كذلك ان يفسر ظاهرة الاجرام تفسيرا جغرافيا فزعم بان الأجرام في المناطق الحارة أكثر حدوثا منه في المناطق الباردة. أي ان المكان كلما قرب من خط الاستواء حسب رأيه كثر حدوث الاجرام فيه. ومن الطريف ان نشير في هذا الصدد الى ان مونتسكيو ذهب الى أبعد من ذلك في تفسير أثر الطقس في الحضارة والمجتمع والانسان. فزعم ان اختلاف الأمم في نظمها السياسية والأخلاقية راجع بعد التحليل الدقيق إلى اختلاف طقوسها الجغرافية. وان الفساد الخلقي والسياسي يكثر كلما قربنا من خط الاستواء حيث المناخ الحار. فالقوانين الاخلاقية والحرية السياسية بنظرة لا يتلاءمان هما والمناطق الحارة ولا ينموان أبدا على حد زعمه "حيث ينمو البرتقال" ولعل مونتسكيو يقصد بعبارة "حيث ينمو البرتقال" المناطق التي ينمو فيها البرتقال في حوض البحر المتوسط. ويلوح لي ان مونتسكيو قد اعتبر القوانين الأخلاقية الشائعة في المجتمع الفرنسي في عهده أساسا للحكم على أخلاق الافراد والمجتمعات. فاعتبر الابتعاد عن تلك القوانين ابتعادا عن الاخلاق نفسها. الواقع ان الفرق بين الأمم من الناحية الخلقية إنما هو فرق بين أنظمتها الخلقية وقوانينها الاجتماعية. وما يعتبر خروجا على الأخلاق بالنسبة لمجتمع ما إنما هو سيرفق أنظمة اخلاقية معينة غير مألوفة للمجتمع الأول وهكذا. وسبب ذلك من وجهة نظره هو تغير الجو نفسه من بارد إلى حار. غير أن مونتسكيو لم يذكر لنا السبب الذي يجعل المناخ الحار نفسه مؤديا الى الاجرام. ومن الجدير بالذكر ان طائفة من علماء الاجرام المعاصرين تجنح من حيث الأساس نحو التسليم بصحة نظرية مونتسكيو. فالدوق

كوليت مثلا يدعي بأن جرائم الاعتداء على الأشخاص تكثر في العادة في الاقطار الحارة بالنسبة للأقطار غير الحارة من جهة وفي المواسم الحارة في الأقطار نفسها من جهة أخرى. وقد أيدت ذلك الى حد بعيد أبحاث الاستاذ ادون بكستر في الولايات المتحدة والدراسات الاحصائية التي جرت في المانيا وفرنسا وايطاليا في عشرين السنة الماضية.

لقد تركزت أسس التفسير الجغرافي للتاريخ (ولكن من ناحية تختلف عن الناحية التي سلفت الاشارة اليها) في المانيا في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى (وطول الحكم النازي) فظهر هناك المذهبي المسمى Geopolitics والـ Geopolitics كلمة مؤلفة من مقطعين هما Geo: وهو مختصر Geography (جغرافية) و politics يعني سياسة وهو موضوع كما لا يخفى يختلف كثيرا عن موضوع الجغرافية السياسية Geography Political. استعملت كلمة الـ Geopolitics للمرة الأولى بعد الحرب العالمية الأولى وانتشر استعمالها في كثير من أقطار أوربا في الفترة الزمنية الواقعة بين الحربين العالميتين. والهدف الرئيس من ايجاد موضوع Geopolitics على ما يبدو هو تسخير موضوع الجغرافية لخدمة الحكومة القائمة من النواحي السياسة. ويعتبر Radolf Kjelen العالم السياسي السويدي وعضو البرلمان السويدي أول من أوجد الموضوع الذي نحن بصدد البحث في أهم مقوماته. والسياسي السويدي الآنف ذكره كان قد تأثر دون شك بآراء العالم الجغرافي الالماني فردريك راتزل Ratzel (١٨٤٤-١٩٠٤) الذي يعتبر الدولة كالانسان من حيث تركيبها ونشاطها ووظائفها.

ومثل الافراد الذين تتألف الدولة منهم من حيث صلاتهم ببعضهم وبالدولة كمثل أعضاء جسم الانسان لكل منها وظيفة معينة. غير ان تلك الأعضاء جميعا تتعاون (رغم تخصص كل منها في وظائف معينة) لخدمة الجسم كله. وقد يأخذ بعضها وظائف بعض آخر إذا ما اقتضت مصلحة الجسم ذلك. فالبصير يرى بيده والاصم يسمع بعينه. والدولة (بنظر راتزل Ratzel ومن ذهب مذهبه من القدامى) سابقة للافراد في الوجود والأهمية. وهي أرقى المؤسسات الاجتماعية على الاطلاق بما فيها المجتمع والعائلة. وإذا كان الأمر كذلك أصبحت الدولة غاية بحد ذاتها وأصبح الأفراد وسائل لخدمتها. لا العكس. فيجب على جميع الأفراد والحالة هذه ان يخضعوا لسلطانها وأوامرها حتى وان بدا لهم (أو لبعضهم) ان تلك الأوامر لا تتفق هي ومصالحهم الخاصة أو مع المصلحة العامة. وينبغي للأفراد كذلك ان يكونوا دائما على استعداد للتضحية في سبيل الدولة كلما اقتضى الأمر ذلك. فكما ان مصلحة الجسم قد تقتضي قلع الاسنان (أو بعضها) مثلا أو استئصال إحدى الرئتين إذا أشار المختصون من الأطباء فكذلك اذا اقتضت مصلحة الدولة (كما يراها الزعيم وحاشيته) القيام بعملية تطهير داخلية أو أعلان حرب فأن على الأفراد جميعا تلبية ذلك بلا تردد أو مواربة.

ووجه الشبه بين الدولة وجسم الانسان يتضح في ناحية أخرى. فكما ان بعض أعضاء الجسم أرقى من بعض آخر من حيث الوظيفة والمركز فكذلك افراد المجتمع يقع بعضهم فوق بعض من حيث نوع العمل واهميته ويتسلسل الأمر صعدا إلى أن يصل الى الزعيم. هذا من ناحية صلات الأفراد ببعضهم داخل حدود الدولة الواحدة، اما من حيث صلات الدول ببعضها

فانها تخضع كذلك للتسلسل التصاعدي المار الذكر. فيقع بعض الدول فوق بعض آخر من حيث الأهمية والزعامة. وبقدر ما يتعلق الأمر بالفلاسفة الالمان الذين تأثر Ratzel بآرائهم وبخاصة هيكل (الذي سيأتي شرح فلسفته في التاريخ) فقد وضعت الدولة البروسية في القمة من حيث رقيها ومكانتها. ويقاس رقي الدولة وتقدر مكانتها في سلم التطور الاجتماعي بمدى الانسجام الحاصل في علاقات أبنائها فيما بينهم من جهة وعلاقاتهم بالدولة من جهة أخرى.فإذا ما فقد الانسجام أو تضعضع أصبحت الدولة سقيمة وتبوأت منزلة دولية تتناسب هي ونوع ذلك السقم ودرجته. غير ان الافراد حتى في الدول السقيمة لا يجوز لهم ان يثوروا على دولتهم لغرض أجراء تغيير في كيانها لأن تلك الدول (غير الراقية بالنسبة لدول اخرى) مع هذا أرقى من كل فرد من افرادها وارقى منهم مجتمعين. ويقاس رقي الفرد في كل دولة بمدى انسجامه معها وانصياعه لقوانينها. اما الأخذ بيد الدول غير الراقية والسير بها الى مراقي الفلاح فأمر يتعلق بالدول الراقية نفسها وفي مقدمتها بروسيا كما ذكرنا. وإذا كان الامر كذلك وجب على الدول المتخلفة عن ركب الحضارة أن تنصاع إلى أوامر الدول الراقية وأن لا تقاومها إذا أرادت تلك الدول احتلالها لغرض اخراجها من الظلمات إلى النور.

لقد بنى السياسي السويدي الذي مر اسمه معنا نظريته التي المعنا اليها على الأسس التي شرحناها. واعتبر الدولة كجسم الانسان من حيث ولادتها ونموها وانحلالها وفناؤها كذلك. وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللغة الالمانية في أواخر سني الحرب العالمية الأولى وتبناها القائد الألماني المتقاعد كارل

Haushofer في عام ١٩١٩. وقد توسع هذا القائد بدراسة هذا الموضوع برغبة وبراعة. ومما تجدر الاشارة اليه انه كان على اتصال دائم بهتلر بين عامي ١٩٢٣و ١٩٢٤ عندما كان هتلر سجينا في ميونخ. وكان يتردد عليه وهو في سجنه. ويظن بعض الباحثين أن للقائد المار ذكره أثرا في بعض الاراء التي عرضها هتلر في كتابه "كفاحي" ومن الطريف هنا ان موضوع الـ Geopolitics قد أخذ بالتوسع في المانيا في تلك الفترة وتفرع إلى فروع عدة أهمها Geostratigy و Gea-economic و Geo- medicine يبحث الأول منها في أهمية الجغرافية من الناحية العسكرية والثاني من الناحية الاقتصادية والثالث من الناحية الصحية.

ومن أشهر دعاة التفسير الجغرافي للتأريخ في الوقت الحاضر الاستاذ الامريكي E. Huntington (١٨٧٦- ١٩٤٧) الذي عزا تقدم الحضارات البشرية في بعض المناطق دون غيرها كما عزا أسباب انحلالها وتأخرها إلى عوامل مناخية صرفة. وتتلخص فكرة الاستاذ الآنف الذكر في دراسة مقارنة قام بها لتبيان مواقع الحضارة البشرية من الناحية المناخية العامة للكرة الارضية. ولتوضيح وجهة نظرة رسم لنا خارطتين جعل احداهما تبين اقسام الكرة الأرضية المختلفة من الناحية المناخية. على حين انه جعل الخارطة الثانية تبين مواطن نشوء الحضارات الانسانية المختلفة، وقد استنتج من ذلك أن المناخ هو العامل الحاسم في نشوء الحضارات البشرية وتقدمها وانحطاطها.

وإذا نظرنا لموضوع أثر البيئة الطبيعية في السير العام للحضارة البشرية من ناحية أخرى أمكننا أن نقول بأن التصدي لدراسة أثر البيئة

الطبيعية (العوامل الجغرافية) في السير العام للحضارة البشرية على الفرد والمجتمع وان كان قد لقي اهتماما كبيرا من قبل الباحثين القدامى فأن الدراسات العلمية الحديثة قد كشفت عن اهميته في تكوين الأفراد من الناحيتين الفسلجية والبايولوجية بله النواحي الثقافية والاجتماعية التي ذكرناها. ويتضح اثر البيئة الجغرافية في تركيب الانسان من الناحية الجسمية (وما يتصل بذلك من النواحي الفكرية والخلقية والمزاجية) إذا ما وازانا بين بشرة زنوج افريقيا وبين سكان المانيا (الذين اعتبرهم هتلر ارقى الشعوب). لقد ثبت علميا ان اختلاف لون بشرة الالمان عن لون بشرة الزنوج راجع في أساسه الى عوامل جغرافية ومناخية. فقد دل البحث العلمي ان تحت بشرة كل انسان (بغض النظر عن لون تلك البشرة) غددا يفرز بعضها مادة كيميائية تدعى Carotene ويفرز بعض آخر مادة كيمياوية أخرى اسمها Melanine وان الفرق بين الوان البشرات الانسانية يتعين بمقدار تغلب أحد الافرازين الآنفي الذكر على الآخر. فأذا تغلب أولهما (وهو المادة الكيمياوية التي تجعل لون البشرة أصفر) مالت البشرة بشكل عام نحو الصفاء والشقرة. واذا تغلب الثاني (وهو المادة الكيمياوية التي تجعل لون البشرة ادكن) مالت البشرة نحو السمرة. ويتوقف نوع تلك السمرة على تفوق مقدار كمية الافراز الثاني بالنسبة للافراز الأول. وتلعب العوامل المناخية وبخاصة الحرارة ونور الشمس دورا فعالا في تقرير كمية افراز كل من المادتين الآنفتي الذكر. وكلما كان المكان حارا قريبا من خط الاستواء كان مقدار افراز مادة الـ Carotene أقل من افراز مادة الـ Melanine وبالتالي كان اللون أقرب الى السواد منه الى أي لون آخر.

واللون الاسود الناتج عن عوامل مناخية معينة يصبح بدوره أكثر ملاءمة من غيره للمعيشة في المناطق الحارة المشمسة لأنه يحمي الجسم من نفاذ الاشعة المحرقة للجسم المسماة Short –Wave Solar Radiation التي تصبح كثيفة أثناء النهار وأثناء السنة في المناطق المعروفة جغرافيا بـ Lao Lattidudes على حين ان في المناطق القليلة الشمس يصبح أصحاب البشرات السود في وضع غير ملائم (عكس غيرهم من ذوي البشرات الأخرى) وذلك لفقدانهم ما يحتاجون اليه من الاشعاع المسمى Solar Radiation الذي يساعد على تكوين فيتامين D الذي يسبب فقدانه الاصابة بمرض الكساح Rickets ذلك المرض الذي يكثر انتشاره (كما هو متوقع) بين زنوج امريكا (الذين يعيشون في المناطق الباردة). وقد ايدت التقارير في قسم من المستشفيات البريطانية ما ذكرناه حيث وجد ان كثيرا من اطفال الأوربيين المتزوجين بالأفريقيات مصاب بذلك المرض. ومما يجعل الوضع الحياتي للزنوج (الذين يسكنون في الأماكن الباردة) اقل ملاءمة بالنسبة لغيرهم من ذوي البشرات الأخرى (بالاضافة الى ما ذكرنا) هو انهم يحتاجون في تلك المناطق الى الاكثار من الملابس الثقيلة لتقيهم شدة البرد الأمر الذي يجعل من المتعذر على اجسامهم امتصاص ما تحتاج اليه من تلك الأشعة حتى في حالة توافرها ذلك لأن الملابس الثقيلة تمنع تسرب تلك الاشعة للجسم. فلا غرو ان رأينا الكثيرين منهم ومن السكان البيض كذلك يلجأون في الشتاء الى تعريض أجسامهم العارية للشمس مباشرة اثناء النهار في بعض ايام الشتاء –الحمام الشمسي.

ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان الأنوف الطويلة الدقيقة ذات المجاري الضيقة عند قسم من شعوب المناطق الباردة الجافة قد نشأت على هذا الشكل كما يحدثنا بعض الباحثين المعاصرين بنتيجة العوامل الجغرافية المناخية. والغرض منها على مايبدو ان يصبح باستطاعتها تسخين الهواء المستنشق وترطيبه قبل ان يصل إلى الرنتين. والعكس صحيح عند الزنوج ذوي الأنوف القصيرة والشفاه العريضة التي أصبحت كذلك لغرض تحويل الحرارة الجسمية إلى الهواء الملامس لأن البشرة السوداء أقل كفاءة من البيضاء في تحويل حرارة الجسم إلى البيئة الخارجية في حين أن العكس هو الحاصل في حالة امتصاص الجسم للحرارة من البيئة وبخاصة امتصاص الأشعة المسماة Long- Wave of Solar Radiation التي يتجاوز طولها الـ ٤/ ١٠٠٠٠ مليمتر. وبذا تصبح أكثر قدرة من غيرها على حفظ الأشعة فوق البنفسجية. على حين ان البشرة البيضاء تتشقق إذا ما تعرضت للشمس المحرقة. يضاف الى ذلك ان احدى وسائل تبريد الجسم صيفا هو العرق الذي تفرزه غدده. وكميته عند السود اكثر منها عند البيض ذلك لأن لدى السود مسامات اكثر كمية وأكبر سعة منها عند الآخرين. وتعود اسس ذلك الاختلاف الى عوامل جغرافية صرفة. يضاف الى ذلك ان الوضع المناخي للسكان يعين نوع تغذيتهم. فتختلف التغذية بين منطقة مناخية واخرى من جهة وبين الصيف والشتاء في المنطقة نفسها من جهة اخرى. ففي وقت الصيف في الأماكن الباردة (وفي أكثر أيام السنة في الاماكن الحارة) يكثر الميل لتناول الأطعمة الخفيفة كالفواكه والخضروات وتشتد الحاجة الى استعمال المشهيات كالمخللات والتوابل

والحوامض قبل الطعام لاثارة الشهية للطعام. على حين ان العكس هو الواقع في الأماكن الباردة طوال السنة وفي الأماكن الحارة اثناء الشتاء حيث يشتد الميل والحاجة الى تناول المأكولات الدسمة والثقيلة دون حاجة كبيرة الى استعمال المنبهات.

ويجمل بنا ان ننبه القارئ مرة اخرى الى ان ابن خلدون (الذي مرت الاشارة الى رأيه في أثر الجغرافية في التاريخ) قد تصدى كذلك الى البحث في أثر المناخ (والعوامل الجغرافية الأخرى) في امزجة الاشخاص وفي أنماط سلوكهم وتفكيرهم. فقد ذكر في مقدمته (ص:٨٤) بأن الأقاليم الأربعة الاولى (التي ذكرناها) منحرفة في مناخها "واهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالاول والثاني للحر والسواد والسابع للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الأول والثاني باسم الجثة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الامم المتغيرة بالسواد... وليست هذه الأسماء من أجل انتسابهم الى آدمي اسود لاحام ولا غيره وقد نجد في السودان اهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل او السابع المنحرف الى البياض فتبيض الوان اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع بالجنوب فتسود الوان اعقابهم وفي ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء". ويستمر ابن خلدون في شرحه لاثر العوامل المناخية في طبائع السكان فيقول في مقدمته (ص:٨٥): "واما اهل الاقاليم الثلاثة المنبسطة اهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرناسات والملك فكانت فيهم النبوءات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمباني

والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الاحوال المعتدلة واهل هذه الاقاليم التي وقفنا على اخبارهم مثل العرب وفارس بني اسرائيل واليونان واهل السند والهند والصين. ولما رأى النسابون هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لاجل الانسان فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في الوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم او اكثرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة واهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والساسة والملك من ولد سام".

وفي معرض التحدث عن اثر المناخ في لون البشرة الجسمية عند الانسان وبالتالي في سلوكه وتصرفاته يقول ابن خلدون (المقدمة ص:٨٦- ٨٧) فيما يتعلق بتعليل ميل الزنوج في العادة في الخفة والمرح قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر ان الحرارة مغشية للماء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح والقلب في الحرارة والغريزة التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيغشى الروح وتحييء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في ارواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على امزجتهم وفي اصل

تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح اهل الاقليم الرابع اشد حرا فتكون اكثر تفشيا فتكون اسرع فرحا وسرورا واكثر انبساطا ويجيء الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة ينعكس عليه من اضواء بسط البحر واشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة... واعتبر ذلك ايضا بأهل مصر فأنها مثل عرض بلاد الجزيرة او قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب... وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشيء اكثر من انه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي ان ذلك لضعف ادمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه".

ويستطرد ابن خلدون حيث يسوقه البحث الى التحدث عن اثر الاغذية في الجسم والسلوك والتفكير فيقول (المقدمة ص٨٨- ٨٩): "ان كثرة الاغذية وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ورطوبتها تولد في الجسم فضلات ردينة تنشأ عنها بعد اقفارها في غير نسبة. ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم. وتغطي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد على الدماغ من ابخرتها الردية فتجئ البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة. واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء

اديمها وحدة رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها. فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الا لاجل ان الخصب في التلول فعل في ابدان هذه من الفضلات الردية والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها واشكالها ما شاء. واعتبر ذلك في الآدميين ايضا فأنا نجد اهل الاقاليم الخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف اهلها غالبا بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم". ويستطرد ابن خلدون فيتوصل الى القول (المقدمة ص: ٨٩) بان "اثر هذا الخصب في البدن واحواله حتى في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من اهل البادية او الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذ احسن دينا واقبالا على العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والامصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البر. ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي... فأن هؤلاء وان اخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع. والسبب ان المنغمسين في الخصب المتعودين للادم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك امعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فإذا خولف بها العادة بقلة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء اسرع الى المعا اليبس والانكماش وهو ضعف في الغاية فيسرع اليه المرض ويهتك صاحبه دفعة... فالهالكون في المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق".

ولعل من المناسب ان نشير هنا الى اننا لم نقتبس الفقرات الآنفة الذكر من مقدمة ابن خلدون لندلل على صحتها او اتفاقنا معه عليها (اذ انها من الناحية العلمية الحديثة) لا تصلح اساسا للبحث. ان غرضنا من ذلك هو الالماع الى ان ابن خلدون لم تفته دقة البحث (اذا ما قيست بمقاييس زمانه ومجتمعه) في امثال تلك الامور. غير ان المرء من الجهة الثانية يستطيع ان يقول بان طبائع الناس وامزجتهم وتركيب اجسامهم لا تخلو من التأثر بالبيئة الطبيعية التي يتعرضون لتاثيرها. يضاف الى ذلك، بنظر بعض الباحثين، ان كثيرا من العقائد البشرية في الدين والسياسة والاخلاق ناتجة الى حد كبير عن انواع بيناتهم الجغرافية. فالبيئة الباردة التي تعيش فيها الاسكيمو مثلا، بنظر اولئك الباحثين، هي التي جعلت الصورة الفكرية للجنة عندهم، من الناحية الدينية، لا تختلف كثيرا عن جهنم في الديانة الاسلامية.

يتضح مما ذكرنا أثر العوامل الجغرافية وبخاصة المناخ في تركيب الانسان من الناحية الجسمية. ويرافق ذلك وينتج عنه تغيير كبير في السلوك ومظاهر التفكير والنشاط. أي ان المناخ بعبارة أخرى يؤثر في السلوك بصورة غير مباشرة أحيانا وذلك عن طريق تغيير الصفات الجسمية أو تغيير وظائف الجسم. ويؤثر المناخ في بعض الأحيان تأثيرا مباشرا في السلوك دون ان يحدث أي تبديل في تركيب جسم الانسان أو تغيير وظائفه. وتتضح هذه الظاهرة في الاختلاف الواضح بين سلوك الشعوب التي تقطن مناطق جغرافية باردة وبين سكان المناطق الحارة من جهة وبين سكان المنطقة نفسها في الصيف والشتاء من جهة اخرى. ومن الأمثلة على تغيير الوظائف الجسمية دون تغيير تركيب الجسم ان التغيير الناتج عن عوامل

جغرافية (في المناطق الجغرافية المسماة Higer Lattitudes حيث تصبح كمية الاوكسجين في القدم المكعب قليلة) يضطر القلب إلى الاسراع في ضرباته للحصول على ما يحتاج اليه من الاوكسجين دون ان يتغير تركيب القلب نفسه. اما الأمثلة على تغيير التركيب الجسمي نتيجة للعوامل الجغرافية فقد مر شرحها ويكفي ان نشير هنا إلى ان من بين التجارب المختبرية الطريفة في هذا الصدد تجربة اجريت على عدد من الجرذان وضع بعضها في غرفة مرتفعة درجة حرارتها ووضع بعض آخر في غرفة ذات درجة حرارة واطئة فنتج عن ذلك ان ذنب كل جرذ من الفريق الاول اصبح اطول من ذنب كل جرذ من الفريق الثاني بسنتيمتر واحد. وقد حصل ذلك التغيير عند الفريق الاول نتيجة لان الذنب كان يستعمل كوسيلة للاشعاع الحراري as an organ of radiation of heat والعوامل الجغرافية بشكلها العام كما لا يخفي ذات أثر كبير في معيشة الانسان ونمو اعضاء بدنه المختلفة ذلك ان البيئة الجغرافية تمد الانسان بوسائل عيشه ومقومات جسمه وحياته.

ومن اطرف ما عثرنا عليه في صدد البحث في تفسير التاريخ تفسيرا جغرافيا الاراء الثلاثة التالية:

(١) رأى الاستاذ Metinkoff الذي قسم تاريخ الحضارة البشرية بشكلها العام الى ثلاث فترات حسب الموقع المائي للمنطقة الجغرافية هي:

أ- فترة الحضارة القديمة التي بدأت على ضفاف الانهار مثل حضارة وادي النيل والرافدين والحضارات التي نشأت على ضفاف الانهار في الشرق الاقصى وبخاصة في الهند والصين. وقد سمي هذه الفترة Potamic.

ب- وفي المرحلة الثانية انتقلت الحضارات البشرية من ضفاف الانهار الى سواحل البحار فظهرت الحضارة الفينيقية واليونانية على سواحل البحر المتوسط. وقد اطلق على هذه الفترة اسم Thalassic.

ج- وفي هذه المرحلة انتقل مركز الحضارات الى المحيطات فظهرت الدول الكبرى في أوربا والولايات المتحدة وشرقي آسيا وتسمي هذه المرحلة Oceanic.

(٢) الرأي القائل بأن مركز الحضارة البشرية يسير بأستمرار من المناطق الجنوبية الحارة نحو المناطق الشمالية الباردة للكرة الارضية. ويزعم دعاة هذا الرأي بأننا وان كنا نجهل لاصول التي تحدرت منها حضارة وادي النيل والرافدين فأن تلك الاصول كما يدل السير العام للتاريخ الانساني من وجهة نظرهم يمكن ان تعزى الى حضارات قامت في القسم الجنوبي للكرة الارضية. ومن وادي النيل والرافدين تقدمت الحضارة الانسانية صعداً نحو الشمال فنشأت الحضارتان اليونانية والرومانية. ثم سارت الحضارة شمالا فاسفرت عن انبثاق الحضارات الاوربية الحديثة وحضارة الولايات المتحدة والحضارة السوفيتية.

(٣) الرأي الذي نادى به الاستاذ زنزر Zenseer احد علماء البكتريولوجي الامريكيين المعاصرين وفحواه: ان الحشرات والهوام والمكروبات والطواعين (وهي امور يتوقف نموها وانتشارها بنظره على عوامل

بيئية جغرافية) هي التي تغير مجرى التاريخ الانساني وتنقل مراكز الحضارة البشرية من مكان الى مكان وقد وضع الاستاذ المذكور نظريته في كتاب ممتع سماه (الفيران والقمل في التاريخ) مستشهدا بطائفة من الامثلة التاريخية لتأييد وجهة نظره وقديما قيل "وخرب حفر الفار سدا لمأرب".

(٢) التفسير الروحي للتاريخ

يتجلى هذا التفسير بأوضح اشكاله عند هيكل الفيلسوف الالماني المشهور الذي عاش في الفترة التي شهدت اوربا اثناءها حروب نابليون وانتشار مباديء الثورة الفرنسية. ولتفسير التاريخ عند هيكل صلة وثقى بفلسفته العامة ونظرته للكون والمجتمع والانسان. واذا صح ما ذهبنا اليه جاز ان نقول انه من المتعذر جدا على المرء ان يلم بفلسفة التاريخ الهيكيلة الماما كافيا مالم يحيط بالخطوط العامة لفلسفة هيكل على اقل تقدير وبخاصة ما يتصل منها بفلسفة التاريخ عند هذا الفيلسوف. غير اننا مع هذا لا نرى ضرورة كبير في الولوج بتفاصيل تلك الفلسفة. وبقدر ما يتعلق الامر بفلسفة التاريخ عند هيكل يمكننا ان نقول ان الكون من وجهة نظر هيكل وحدة متعددة الاجزاء متشابكة الجوانب معقدة التركيب أي ان الكون ليس مؤلفا (كما يخيل للانسان) من وحدات صغيرة متناثرة في الفضاء مثل الاشجار والناس والابنية وما شاكلها بل تلك الوحدات الصغيرة على رأي هيكل اجزاء في العالم الكلي. وعلى هذا الاساس ينبغي دراسة الاجزاء (التي تبدو كأنها متناثرة في الفضاء والتي تدركها حواس الانسان على ذلك الشكل دائما هذا اذا أردنا ان تفهمها على حقيقتها) من حيث علاقتها

بالاجزاء الاخرى وبالكل الذي هي جزء منه. والكون الذي تدركه الحواس الانسانية على رأي هيكل ناقص ومتغير إذا ما قيس بالذات العليا او القوة السماوية التي اوجدته. فالذات العليا او الادارة العاقلة أو الكون الخلاق (الله) بنظر هيكل هو المرحلة الاولى في التكوين العالمي أي انه موجد الوجود. وهو شيء كامل التكوين وهو مصدر الخير والحق والجمال وما شاكلها من الفضائل وهو كذلك سام في جوهره لا تدركه حواس الانسان. ولما كان من المستحيل على الناس ان يدركوا إكنهه ادراكا حسيا او عقليا لسموه فوق مستوياتهم الحسية والفكرية فانه نفسه قد اضطر الى اظهار نفسه للناس عن طريق خلقه لنقيضه وهو العالم الطبيعي الذي نعيش فيه او الكون الذي تدركه حواسنا. غير ان الغاية القصوى من ذلك الخلق هي الارتفاع بالكون الذي نعيش فيه (ذلك الكون الذي يكتنفه الفساد والنقص من جميع اطرافه) الى مستوى قريب من مستوى خالقه. ولتحقيق الكون الذي نعيش فيه. وفلسفة التاريخ عند هيكل مبنية على الاسس العامة لفلسفته كما شرحناها. فليس التاريخ من جهة نظره مجموعة من الحوادث (الطبيعية) او الاجتماعية). ذلك لان تلك الحوادث متعلق اشد التعلق بالكون الذي نعيش فيه. بل التاريخ هو الفكر الذي اوجد تلك الحوادث والمقصود بالفكر هنا فكر الذات العليا او الكون الخلاق الذي مرت الاشارة اليه. ويطلق هيكل على ذلك الفكر اسم الفكر المطلق او العقل المطلق الذي يتحدى في معرفته حدود الزمان والمكان ويسمو فوق كل شيء. وبما ان العقل المطلق يسمو فوق حدود الزمان والمكان فليس للتاريخ الذي يحدثه حدود زمانية او مكانية. وبما ان العقل المطلق كذلك كله خير وفضيلة (اذ

هو مصدر العدالة والحرية والجمال واضرابها من من الفضائل) فالتاريخ على هذا الاساس كله خير وعدالة. وما الحوادث (التي تبدو للانسان كأنها شرور) الا خير أساء الناس فهمه لقصر ادراكهم في عالم المغيبات. وبما ان تاريخ العقل المطلق سام في جوهرد وقصده وانه من المستحيل على الناس ان يدركوا كنهه فقد اضطر هو نفسه الى اظهار نفسه للناس عن طريق خلقه لنقيضه. هذا النقيض هو الحوادث (الطبيعية او الاجتماعية التي في الكون الذي نعيش فيه) التي ندعوها (خطأ) بالتاريخ. ويتضح ذلك بأجلى مظاهرد على رأي هيكل في الشرق الادنى والاقصى (في عهده) حيث يخضع الناس لارادة شخص واحد هو الحاكم او السلطان او الامير الذي يصادر حريات الناس ويعبث بمصالحهم ويسومهم اصناف الخسف والهوان ويتمتع هو واعوانه بالحرية المطلقة في تصرفاته وتصرفات اعوانه وخواصه. وبما ان العقل المطلق يسعى (على رأي هيكل) الى رفع مستوى البشرية من جميع نواحيها فانه خلق الشعب الالماني كحلقة وسطي بين التاريخ المطلق وتاريخ الشرقين الادنى والاقصى. وما على الشعب الالماني بدوره الا الخضوع المطلق لساسته وزعمائه الذين اختارتهم العناية الالهية للاخذ بيد أمم الارض طرا الى مراقي الفلاح في نواحي الحياة جميعها. فالشعب الالماني على هذا الاساس رسالة سماوية فاضلة عليه ان يبلغها للناس ليخرجهم من الظلمات الى النور. ولكي ينجح في أداء تلك الرسالة عليه ان يخضع لزعيمه خضوعا تاما وذلك بتجنب نقد افعاله وتصرفاته التي قد تبدو كأنها اذا قيست بمقاييسنا البشرية الناقصة. ان تلك الافعال لا يرقى اليها الشك ولا ينبغي ان تقاس بمقاييسنا الاجتماعية الشائعة لانها

امور صادرة عن الارادة الالهية التي تتحدى حدود الزمان والمكان. والزعيم من وجهة نظر هيكل لا يخلق التاريخ او يغير مجراه بأرادته وانما هو شخص ينفذ الارادة الالهية وله دور خاص يلعبه في المجتمع ومن ثم يختفي تبعا لاوامر تلك الارادة -وقد يبدو لنا الزعيم احيانا وكأنه فشل في اداء رسالته -الواقع انه لم يفشل من وجهة نظر الذات العليا التي أرادت منه ان يقوم بما قام به. ومصدر الفشل راجع الى نقص احكامنا لا الى طبيعة اعماله.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان هيكل يرى ان تكوين الانسان لا يتم على وجهه الصحيح الا عن طريق خضوعه للمؤسسات الاجتماعية وفي مقدمتها (من حيث التكوين والاهمية) الدولة فالمجتمع فالعائلة بما فيها من نظم دينية وفلسفية ولغوية وعلمية وفنية وتشريعية الخ... وقد زعم هيكل كذلك ان الدول نفسها تختلف من حيث التكوين والاهمية فتقع الدولة البروسية في مقدمتها لأن وجودها بنظره ضروري لتقدم البشرية، ومن حقها ان تطاع وواجب الدول الاخرى ان تنصاع الى اوامرها. ومن حقها كذلك ان تعلن الحرب على الدول الاخرى مجتمعة او منفردة -(كلما كان ذلك ضروريا) لاداء رسالتها. اما الدول الاخرى فلا يجوز لها اعلان الحرب على الدولة البروسية ولا اظهار التمرد والعصيان.

ويتضح مما ذكرنا ان هيكل يعتبر كل دولة بالنسبة لافراد شعبها مؤسسة سامية ينبغي ان يكون لها على افراد شعبها هيمنة في نفوسهم وقدسية واحترام. وينبغي للافراد ان يخضعوا لها خضوعا تاما والا تحدثهم انفسهم بالخروج على انظمتها. والافراد بخضوعهم للدولة كما يقول هيكل

يحققون حريتهم التامة. ويعتبر هيكل ثورة الشعب او بعضه على الدولة خروجا على النظام وانتقاصا لمبدأ الحرية نفسه. ولكن هيكل مع هذا كما سلف ان ذكرنا يدعو الى ضرورة حدوث الحرب بين الدول احيانا لان بعضها بنظره يحيد عن اتباع الارادة السماوية. والدولة الوحيدة التي تمثل الارادة السماوية هي دولة بروسية التي لها وحدها الحق في اعلان الحرب على الدول الاخرى متى رأت ذلك ضروريا.

***

٣- التفسير المادي للتاريخ

يدعى التفسير المادي للتاريخ من الناحية الفلسفية بالمادية التاريخية. والمادية التاريخية كما هو معروف هي الفلسفة الاجتماعية التي اوجدها كارل ماركس وفردريك انكلز في منتصف القرن الماضي لتفسير الحكومة ونشوئها واهميتها من جهة ولتفسير تركيب المجتمع من الناحيتين السياسية والاقتصادية من جهة ثانية ولتفسير التاريخ وعوامل حدوثه من جهة ثالثة. والمادية التاريخية هي الجانب الاجتماعي للمادية الدايلكتيكية -الفلسفة العامة لماركس وانكلز التي تبحث في الوجود وطبيعة الكون والقوانين العامة التي تسير بموجبها قوى الطبيعة. وبما ان البحث المستفيض في المادية الدايلكتيكية خارج عن نطاق دراستنا هذه فسوف نقصر بحثنا على الامور التي يستند عليها تفسير المادية التاريخية لقوى المجتمع وعلاقات الامم والافراد.

وبقدر ما يتعلق الامر بالمادية التاريخية يمكننا ان نقول ان القوانين التي وضعها ماركس لتفسير الكون هي:

أ- القانون ذو المظاهر الثلاثة: التناقض والتأثير المتداخل ووحدة المتناقضات:

وملخصه: ان كل ما هو موجود في الطبيعة من امور مادية ملموسة او فكرية مجردة يمكن ارجاعه بعد التحليل الدقيق الى عناصر متناقضة في تركيبها. وبما ان تلك العناصر متناقضة في تكوينها الطبيعي فاتحادها اذن امر طارئ ووقتي. أي ان الوحدة التي نشاهدها في الحوادث والافكار والاشياء المادية شيء وقتي معرض للتفكك في كل لحظة من لحظات الوجود. وينتج عن هذا ان التغير هو القانون العام الذي تخضع لمفعوله جميع قوى الطبيعة. وجريا مع هذا المنطق يصبح الثبوت حالة طارئة ذات وجود وقتي فقط. فلكل شيء في الطبيعة اذن تاريخ معين من حيث علاقات اجزائه ببعضه ومن حيث علاقات الشيء كله بغيره من الاشياء ذلك لان كل شيء في الطبيعة متغير الا التغير نفسه فانه لا يتغير.

ب- قانون التحول الكمي الى تحول نوعي وبالعكس:

بما ان كل ما هو موجود في الطبيعة موجود في حالة تغير مستمر فان ذلك يعني ان الاشياء تتحول من حالة لاخرى تحولا نوعيا احيانا وكميا احيانا اخرى. وعلى هذا الاساس فالتحول الذي يطرأ على كيان الاشياء يؤدي حتما الى تغيير ذلك الكيان عن طريق احداث صفات جديدة تلازم الشيء الجديد كما كانت الصفات القديمة ملازمة له. وعن طريق الصفات الجديدة يتحول الشيء القديم الى شيء جديد يختلف عنه تمام الاختلاف.

وللتمييز بين التغير الكمي والتغير النوعي ينبغي ان لا يغيب عن البال ان الاول منهما يتضمن الزيادة او النقصان في كمية الشيء نفسه أو في

مقداره على حين ان التغير النوعي يتضمن تحـول الـشيء القـديم الـى شيءجديد يختلف عنه تمام الاختلاف في جميع مظاهره. غيـر ان التغيـر الكمي مع هذا يؤدي احياناً الى تغير نوعي وبالعكس. ولكي يتحول الشيء من الناحية الكمية الى شيء آخر يختلف عنه اختلافاً نوعيا يجب عليـه ان يبلغ حالة التحول أو درجته. ويتم ذلك عادة بشكل مفاجئ وسـريع. فـاذا سخنا الماء مثلا فأنه يتحول الى بخار عندما تبلغ حرارته درجة معينة.

وتتلخص عملية التحول هذه في ان الجزيئات التي يتكون الماء منهـا تزداد سرعة حركتها نتيجة لتزايد درجة الحرارة التي تتعرض لمفعولهـا. وما دام الماء في حالته السائلة فأن في وسع قوى الجذب بين جزيئاتـه ان تجعل التماسك بين تلك الجزيئات ممكناً. غير انه من الجهة الثانيـة كلمـا ارتفعت درجة الحرارة اصبح بمقدور بعض الجزيئات ان يخرج على قـوة التماسك التي أشرنا اليها فيظهر على سلوك تلك الجزيئات ما يشبه التمـرد او العصيان او الميل الى الانفصال. فأذا بلغ الماء درجة الغليـان اصـبحت حركة الجزيئات التي تحاول الانفصال عميقة بحيث يتحول بعـضها الـى فقاعات ومن ثم تتطاير في الفضاء على شكل بخار. وسبب ذلك كما يقـول الماركسيون يعود الى الصراع الحاصل بين المتناقضات الموجودة في طبيعة كتلة الماء- وهو صراع بين الجزيئات التي تميل الى الانفصال عن المـاء نتيجة لتزايد درجة حرارته وبين قوى التماسك الموجودة فـي الجزيئـات الاخرى. وهو صراع كما يقول الماركسيون بين الـشيء القـديم (المـاء) والشيء الجديد (البخار)- صراع بين شيء في طريقه الى الزوال (ولكنـه

مع هذا يقاوم ويخوض معركة وان كانت فاشلة في نتيجتها النهائية) وبين شيء جديد في طريقه الى التكوين والحياة والنمو والتكامل.

جـ قانون نفي النفي:

وفحواه ان سلسلة التغيرات التي تحدث وفقا للقانون الثاني مستمرة ابدا وان ما يحدث لشيء من الاشياء في مرحلة لاحقة لا يخرج عن كونه نفيا للمرحلة التي سبقتها. وما يحدث للمرحلة الجديدة هو نفي النفي. وهكذا.

ونفي النفي في واقعه عملية تتحلل المادة بوساطتها الى اجزائها المختلفة ذات الطبيعة المتنافرة (حسب منطوق القانون الاول) ذلك لان كل نفي يحمل معه بذور نفيه او نقيضه وان كان ذلك مبنيا على أسس نوعية جديدة. وليس النفي في جوهره عند الماركسيين عاملا من عوامل الهدم (اللهم الا فيما يتصل بقضائه على بعض مكونات الشيء القديم). وهو عنصر من عناصر التجديد والبناء اذ انه يؤدي دائما الى احداث شيء جديد ارقى من القديم. ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان النفي بنظر الماركسيين لا يؤدي حتما الى القضاء على القديم بكليته وانما هو يستأصل العناصر المتفسخة منه ويزيل المناطق الرخوة الضعيفة الموجودة في كيانه فيبقى محتفظا بعناصر القوة التي يمكن ان ينتفع بها الجديد فينقلها اليه. ثم ان الجديد الحاصل بنتيجة النفي يؤدي بدوره الى تكوين شيء ارقى منه كنتيجة لنفي النفي. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول على رأي الماركسيين ان النفي عامل من عوامل التقدم كما يصبح نفي النفي عاملا من عوامل تقدم ذلك التقدم وهكذا.

ذلك ما يتصل بالمادية الدايلكتيكية. اما تطبيق تلك الفلسفة على المجتمع فيعرف بالمادية التاريخية كما سلف ان ذكرنا. يعتبر المجتمع من وجهة نظر المادية التاريخية خاضعا للقوانين الثلاثة التي رشحها. فالمجتمع بعبارة اخرى مكون من طبقتين اجتماعيتين متناقضتين في المصالح والاهداف: طبقة برجوازية مستغلة (بكسر الغين) مكونة من اصحاب الجاه والثروة والنفوذ. وطبقة بروليتارية مستغلة (بفتح الغين) لا تعمل بوحي من نفسها بل بتوجيه من اصحاب النفوذ الذين فرضهم نظام المجتمع غير العادل عليها. (ولعل من المناسب ان ننبه القارئ الى ان كلمة البرجوازية كلمة فرنسية معها الطبقة الوسطى من مالكي وسائل الانتاج. استعملت للمرة الاولى اثناء الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كوسيلة من وسائل استثارة الجماهير ضد الفئة الحاكمة. اما كلمة البروليتارية فكلمة روسية حديثة الاستعمال تعبر عن الطبقات الاجتماعية المحرومة من ملكية وسائل الانتاج فتعتمد في حياتها وكسب قوتها على قواها الفكرية والجسمية).

ولما كان استمرار خضوع الفئة المحكومة للفئة الحاكمة غير مضمون فقد لجأت الفئة الحاكمة كما يدعى ماركس الى ايجاد مؤسسة لها من القوة والسطوة ما يكفل لتلك الفئة استمرار بقاء نفوذها. وعلى هذا الاساس فالحكومة بنظر انصار المادية التاريخية مؤسسة ظالمة اوجدتها الفئة الحاكمة لحماية مصالحها المركزة من جهة ولحرمان طبقة الفلاحين والعمال والقرويين من حقوقها المشروعة من جهة أخرى. أي ان الحكومة من وجهة النظر هذه مؤسسة اجتماعية كان وجودها نتيجة لكفاح الطبقات الاجتماعية. فليس عجيبا والحالة هذه ان اعتبر ماركس واتباعه التاريخ

البشري كفاحا بين الطبقات المحرومة والطبقة الحاكمة. تحاول الاولى ان تثور على الحكومة لتحطيم كيانها على حين ان الثانية تسعى لاحباط ذلك وابقاء الوضع على ما هو عليه. فالتاريخ اذن بنظر ماركس وزملائه كفاح بين الطبقات نتيجة لتصادم مصالحها الاقتصادية المتعلقة بوسائل انتاج الثروة وملكية تلك الوسائل من جهة وأساليب توزيع المنتجات من جهة ثانية ونوع العلاقات السائدة بين ابناء المجتمع (تلك العلاقات المبنية على أساس نوع وسائل الانتاج السائدة) من جهة ثالثة وطبيعة الأفكار الاجتماعية والدينية والسياسية عن ذلك من جهة رابعة.

يؤمن ماركس وزملاؤه من أصحاب التفسير المادي للتاريخ بأن العامل الاقتصادي هو العامل الاساس الوحيد الذي يؤثر في صلات الامم والافراد ويغير مجرى التاريخ. ويقصدون بالعامل الاقتصادي نوع وسائل الانتاج وقوانين الملكية السائدة من جهة والنظم التي يخضع لها توزيع الثروات والأرباح بين المنتجين والمالكين والمستهلكين من جهة أخرى. هذا العامل الاقتصادي بنظرهم هو الذي يغير تركيب المجتمع ونظام عيشه وفلسفته في الحياة. وما اختلاف المجتمعات في قوانينها الخلقية وفلسفتها الاجتماعية والدينية إلا مظهر من مظاهر اختلافها في نوع الحياة الاقتصادية السائدة فيها. ويعزو ماركس وأتباعه كذلك التشابه الموجود بين بعض المجتمعات فيما يتصل بقوانينها الخلقية وصلاتها الاجتماعية إلى تشابه حياتها الاقتصادية.

يتضح مما ذكرنا أن أصحاب التفسير المادي للتاريخ يقسمون المجتمعات البشرية على أساس أنظمتها الاقتصادية السائدة لا على أسس

جغرافية أو عنصرية أو لغوية كما يفعل غيرهم من الباحثين. كما انهم يقولون كذلك بأثر العامل الاقتصادي في التنظيم الاجتماعي والسياسي والثقافي. ولا عكس. أي أنهم يعتبرون جميع مظاهر الحياة الاجتماعية للجنس البشري أمورا ناتجة عن نوع النظام الاقتصادي السائد في كل مجتمع من المجتمعات. وان مظاهر الحياة الاجتماعية بجميع صورها تخضع لأثر العامل الاقتصادي وتتأثر فيه ولكنها لا تتأثر فيه اطلاقا. يضاف الى ذلك انهم يقولون كذلك بأن احداث أي تغيير في النظام الاقتصادي لمجتمع من المجتمعات (أي احداث أي تبديل جوهري في نوع وسائل الانتاج) يتبعه حتما ان عاجلا أو أجلا تغيير كبير في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية لذلك المجتمع -من نظم سياسية وعلاقات اجتماعية وفلسفات خلقية ودينية.

وقد فرض الماركسيون جريا مع منطق الطريقة الدايلكتيكية (طريقة المتناقضات) ان المجتمع البشري في أدواره الأولى كان شيوعيا انعدمت فيه الملكية الخاصة وكان افراده يتقاسمون انتاج الثروة وتوزيعها بطريقة عادلة. غير ان تلك الشيوعية كانت تحمل معها بذور نقيضها أو نفيها (القانون الثاني الذي مرت الاشارة اليه) فظهرت عبودية الأرض فالاقطاع فالرأسمالية. والرأسمالية كذلك تحمل معها على حد زعمهم بذور نفيها أو عوامل انحلالها -ذلك الانحلال الذي سيودي بنظرهم الى ظهور الشيوعية التي سينعدم فيها وجود الطبقات الاجتماعية وتنتفي ضرورة وجود الدولة والحكومة بما فيها من سجون وشرطة ومحاكم وتشكيلات سياسية أخرى وذلك لعدم وجود الحاجة إلى تلك التشكيلات كما يزعمون حيث لا تبقى

مصالح مركزة يراد من الحكومة ان تحافظ عليها وتسعى لحمايتها. كما يزول كذلك وجود الفوارق الاقتصادية غير العادلة ويصبح انتاج البضائع والخدمات الاجتماعية وتوزيعها خاضعا لقانون عام واحد هو "من كل حسب قدرته إلى كل حسب حاجته".

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان القائلين بالتفسير المادي للتاريخ يعتبرون كل مرحلة من المراحل التي مر بها الجنس البشري أثناء تطوره من الناحية الاقتصادية (بأستثناء الشيوعية البدائية) أرقى من المرحلة التي سبقتها. فمرحلة الاقطاع مثلا أرقى بكثير من مرحلة عبودية الأرض والرأسمالية أرقى من الاقطاع. وهكذا. ويتجلى في كل مرحلة من تلك المراحل من وجهة نظرهم تغيير في وسائل الانتاج يتبعه حتما كما سلف ان ذكرنا تغيير في نوع العلاقات الاجتماعية السائدة. كما يتجلى كذلك في كل مرحلة من تلك المراحل صراع عنيف (يكون واضحا أحيانا ومستورا أحيانا أخرى) بين وسائل الانتاج الجديدة وبين نوع العلاقات الاجتماعية التي يرثها المجتمع من أسلافه الذين عاشوا في المرحلة الاقتصادية السابقة والتي يختلف نوع وسائل انتاجها عنه في المرحلة الجديدة الامر الذي يجعل تلك العلاقات (في المرحلة الجديدة) عائقا لنمو المجتمع بعد ان كانت هي نفسها في العهد القديم احدى اسباب تقدمه. وسبب ذلك من وجهة نظر دعاة التفسير المادي للتاريخ انها كما ألمعنا الى ذلك لا تتلائم هي وطبيعة وسائل الانتاج الحديثة التي تستلزم حتما ايجاد نوع جديد من العلاقات بين افراد المجتمع.

غير ان الوصول الى الشيوعية بنظر حملة التفسير المادي للتاريخ لا يتم الا اذا سبقته مرحلة تدعى المرحلة الاشتراكية (وهي التي يبدو انها الآن مطبقة في روسيا) حيث تكون وسائل الانتاج ملكاً للحكومة وتنتفي بذلك الملكية الخاصة وتزول الارباح الفردية الكبيرة والشركات الخ... ويصبح المبدأ الاقتصادي السائد فيها نظريا هو المبدأ القائل "من كل حسب قدرته الى كل حسب انتاجه" وتسود فيها من الناحية السياسية دكتاتورية طبقة العمال حيث يخضع المجتمع بأسره لحكومة مركزية لها السيطرة التامة على جميع منافذ التفكير المشتركة لافراد المجتمع.

ومما ينبغي ان نشير اليه في هذه المناسبة هو ان اصحاب التفسير المادي للتاريخ يعتقدون بأن المجتمع منذ ان زالت الشيوعية البدائية عنه اصبح طبقيا. وان الفئة الحاكمة اصبحت هي السائدة في المجتمع من الناحيتين المادية والفكرية الامر الذي جعل الفئة المحكومة خاضعة لها من حيث مقدار ما تحصل عليه من الارباح والاجور لقاء اتعابها من جهة ومن حيث خضوعها للانظمة والقوانين والنظريات الخلقية والعلمية والاجتماعية التي تتبناها الفئة الحاكمة من جهة اخرى. وعلى هذا الاساس تصبح القوانين الخلقية والفلسفات الاجتماعية والمعتقدات الدينية التى تنبثق من مصالح الفئة الحاكمة والتي يتبناها افرادها (بنظر حملة التفسير المادي للتاريخ) هي الشائعة في المجتمع بأسره فيخضع لها الحكام والمحكومون ذلك لان وسائل النشر ومصادر القوة جميعها (وهي الوسائل التي بوساطتها تنتقل الافكار من شخص الى آخر او من مجمتع الى آخر ومن جيل الى اخر) بيد الفئة الحاكمة. وبما ان حملة التفسير المادي للتاريخ يدعون الى

ضرورة سيادة الطبقة المحكومة (كخطوة وسطى لنقل المجتمع من حالتـه الطبقية الراهنة الى مجتمع عادل ينتفي فيه وجـود الطبقـات علـى حـد زعمهم) فانهم ينادون بضرورة سيادة فلسفة طبقية ونظم اخلاقية طبقيـة منبثقة من طبقة العمال. وهذه الدعوى بالطبع لا تتضمن الخـروج علـى الاخلاق بصورة عامة كما يخيل لبعض الكتاب بل هي تتضمن الخروج على ما يسميه حملة هذا الرأي بالاخلاق الطبقية السائدة المنبثقة عن مـصالح الفئة الحاكمة.

وباستطاعتنا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان التاريخ من وجهـة نظـر المؤمنين بالمادية التاريخية سجل لكفاح الطبقات. وان عوامل ذلك الكفـاح منبثقة على حد قولهم من نوع الحياة الاقتصادية الـسائدة. وعلـى هـذا الاساس يجب على المؤرخ بنظرهم اذا ما اراد ان يدرس تاريخ مجتمع من المجتمعات او فترة من الفترات التي مر بها الجنس البشري ان يبـدأ اولا (وقبل كل شيء) بتحليل نوع الحياة الاقتصادية السائدة ومن ثم ينتقل الـى دراسة مظاهر الحياة الاخرى (سياسية ودينية وتشريعية الخ) الناتجة عنها. ذلك لان الحياة الاقتصادية بنظرهم كما سلف ان ذكرنا هي الاسـاس الـذي تستند عليه (وتنتج عنه) جميع مظاهر الحياة الاخرى.

* * *

٤- التفسير الدوري للتاريخ:

هناك فئة اخرى من المؤرخين وفي مقدمتهم من القدامى ابن خلـدون ومن مؤرخي القرن الماضي المؤرخ الروسي نيكولاي دانيليفزكـي ومـن المحدثين (في الوقت الحاضر) شبنكلر الالماني وتوينبي الانكليزي تدعي ان مجرى التاريخ يسير وفق نظام خاص واتجاه معين لا يحيد عنه والتـاريخ

بنظرهم يمر اثناء سيره بسلسلة من المراحل والتغيرات يأتي بعضها في اعقاب بعض آخر.

ذكر ابن خلدون في المقدمة ص:١٧٠- ١٧١ ما يلي:

"اما اعمار الدول ايضا فإن كانت تختلف بحسب القرانات الا ان الدولة في الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء الى غايته... لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها... والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحدين وكسل الباقين عن السعي فيه وعن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء... ويبقى لهم الكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول... واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز... ويبلغ فيهم الترف غايته... ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم في الاكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر بالموالي". ويعود ابن خلدون مرة اخرى فيتصدى لبحث ذلك فيقول في ص:٢٩٤ في المقدمة ما نصه: "واذا كان الهدم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهدم في المزاج الحيواني والهدم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها". اما المؤرخ الروسي Nikolai Danilevisky فقد ذكر رأيه في كتاب الفه عام ١٨٦٩ فحواه ان مجموع التاريخ الانساني مكون من "مجاميع ثقافية تاريخية" different historical- cultural types لكل منها خصائصها

ودورها في تقدم الانسانية من نواحيها العديدة. وقد ظهرت من تلك المجموعات حسب رأيه أثنتا عشرة مجموعة هي: المجموعة الثقافية المصرية والصينية والآشورية والفينقية والسامية القديمة والنهدوسية والايرانية والعبرية واليونانية والرومانية والسامية الحديثة او العربية والجرمانية الرومانية او الاوربية وثقافة نصف الكرة الغربي وبخاصة المكسيكية. ومن الجدير بالذكر ان هذا المؤرخ الروسي قسم الجنس البشري (من حيث المساهمة في احداث الثقافة والحضارة) الى ثلاثة اقسام: سمى القسم الاول بالشعوب الايجابية او الشعوب المبدعة التي قامت الحضارة على اكتافها وقد مر ذكرها. ودعا القسم الثاني بالشعوب السلبية او الشعوب المخربة مثل المغول والهون والأتراك (وبخاصة في اوائل تكوينهم الاجتماعي). واطلق على القسم الثالث الشعوب التابعة فلا هي بالمخربة ولا هي بالمبدعة من نفسها، وانما يتوقف عملها على نوع الشعوب التي تستولي عليها. اما اوسكارد شبنكلر المؤرخ الالماني الذي عاش بين عامي (١٨٨٠- ١٩٣٦) فقد اعتبر الثقافة culture تمر اثناء حياتها وتطورها بمراحل اربع تشبه الفصول السنوية للطقس. هذه المراحل على حد زعمه هي دور الطفولة (الربيع) ويتميز من الناحية السياسية والاقتصادية بانتشار الاقطاع وسيادة المفاهيم الاقطاعية في الحكم على المجتمع في جميع اوجه حياته. ودور القوة والنشاط (الصيف) ويتضح في انتقال السيادة من الريف الى المدينة حيث تنمو الصناعة وتنتقل الثروة والجاه من روؤساء الاقطاع الى الطبقة الوسطى من التجار. ودور الذبول والانحطاط (الخريف) ودور الاضمحلال والتفسخ (الشتاء). اما عوامل ذلك التغيير فتعود بنظر شبنكلر الى امور غيبية لا سبيل الى معرفتها. وفي هذه

النقطة بالذات يتضح اثر فلسفة هيكل في آراء شبنكلر المتصلة بتفسير التاريخ.

لقد شرح شبنكلر نظريته في تفسير التاريخ في كتابه المشهور "انحطاط الغرب" الذي الفه اثناء الحرب العالمية الاولى وتم طبعه بعد انتهائها والذي تدور بحوثه على القول بان التاريخ مجموعة من الثقافات: وكل ثقافة تشبه (من حيث نموها وتطورها) جسم الانسان الذي يمر اثناء حياته بسلسلة من التغيرات والمراحل هي مرحلة الطفولة فمرحلة النضج فمرحلة الشيخوخة فمرحلة الموت. تبدأ الثقافة بنظرد متوحشة كما هي الحال في المجتمعات المتأخرة ثقافيا ثم تزدهر فيها النظم السياسية والعسكرية والفكرية فتتحول في مرحلتها الرابعة الى حضارة او مدنية civilization لها خصائصها العامة وصفاتها التي تميزها عن غيرها وفي هذه الفترة (فترة الحضارة) يتسرب الانحلال والتفسخ للثقافة ويعتريها الاندثار. واسبق الثقافة بنظرد فترة ما قبل الثقافة، وهي فترة زمانية او مكانية لا اثر للثقافة فيها وانما نجد الناس فيها يعيشون في جاهلية علمية وسياسية ودينية وخلقية واجتماعية.

تستند كل ثقافة في دور نضجها (أو اثناء سيرها نحو بلوغ ذلك النضج) على أساس فكرة عامة او مبدأ خاص بها يميزها عن غيرها من جهة وتلتقي عنده جميع مظاهر حياة المجتمع من جهة أخرى. ويسمي شبنكلر هذه الفكرة العامة Prime Symbol or Premise فالتوحيد مثلا والفكرة العامة التي تلتقي عندها جميع مظاهر الثقافة الاسلامية: دينية وعلمية وفنية وفلسفية وما شاكلها. ويتوصل شبنكلر في دراسته للحضارات البشرية القديمة والحديثة إلى ان مقدار تلك الحضارات تسع حضارات فقط هي الحضارة المصرية القديمة وحضارة وادي الرافدين والحضارة الهندية

والحضارة الصينية والحضارة الفارسية والحضارة اليونانية -الرومانية والحضارة الغربية (المسيحية) والحضارة الاسلامية والحضارة المكسيكية.

تولد الحضارة من وجهة نظره في اللحظة التي يتسنى للمجتمع ان يظهر فيه زعيم تختاره العناية الالهية للسير بالمجتمع من وضعه الحاضر (المتاخر) إلى وضع أرقى منه تعينه العناية الالهية نفسها. ويقتصر دور الزعيم في مدى امانته واخلاصه في تنفيذ تلك الارادة. (وفي هذه النقطة كذلك يلتقي شبنكلر مع هيكل في صعيد واحد ان لم يكن شبنكلر نفسه مرددا ما سبق ان ما قاله هيكل). وينتهي دور البطل أو الزعيم -ودور الحضارة التي اختارته العناية الالهية لخدمتها- عندما تبدأ الحضارة نفسها (وفقا للارادة الالهية كذلك) بالانطواء على نفسها فيذوى كثير من جوانبها ويعتريها الذبول والانحلال. غير ان الحضارة مع هذا لا تموت حتما بعد فترة وجيزة من تسرب الانحلال الى جسمها. فقد تستمر مئات السنين وهي في حالة الاحتضار فتبقى كذلك لا هي بالميتة ولا الحية النشيطة. ويتوقف طول مدة الاحتضار على أمور غيبية سماوية. وقد تتعرض وهي في حالة الاحتضار والظهور الى محاولات كثيرة مبعثرة يقوم بها بعض الأفراد لغرض بعث تلك الحضارة من جديد. إلا ان جهودهم تذهب ادراج الرياح إذا كان لا بد (من وجهة نظر الآلهة) لتلك الحضارة ان تموت.

اما ارنولد توينبي (١٨٨٩-) المؤرخ الانكليزي المعروف فيعتبر الحضارة او المدينة civilization هي الوحدة الموضوعية لدراسة التاريخ. اي ان التاريخ بنظره لا يمكن ان يدرس دراسة علمية صحيحة أو ان يتوصل الباحثون إلى معرفة اتجاه سيره وعوامل تغيره إلا إذا درست كل حضارة على حدة كشيء قائم بذاته بغض النظر عن جنسية الشعوب،

المساهمة فيها أو مواقعهم الجغرافية أو لغاتهم أو الوانهم. وقد توصل توينبي أثناء دراسته (الواسعة والعميقة للتاريخ الانساني) إلى ان مجموع الحضارات البشرية التي ظهرت منذ فجر التاريخ الانساني حتى الآن لا يتجاوز ثلاثين حضارة (أشهرها بنظره الحضارة المسيحية والاسلامية والهندوسية) منها إحدى وعشرون حضارة أدت رسالتها وبلغت أقصى مراحل نموها في جميع مظاهر حياتها، ومنها خمس حضارات (لم تبلغ في نموها غايته بل وقفت في محل ما) سماها توينبي Arrested Civilizations ، والاربع الحضارات الاخرى زعم انها ولدت قبل أوانها دعاها توينبي Aborative Civilizations .

يعتقد توينبي ان الحضارة لا تزدهر إلا إذا توافرت شروط ثلاثة:

(١) وجود أقلية من السكان تتصف بالابداع الفكري والاجتماعي والسياسي والعسكري. ولا يشترط بطبيعة الحال ان يتصف كل فرد من أفراد تلك الأقلية بجميع الصفات التي ذكرناها. ولكن ينبغي حتما ان تضم تلك الاقلية أفرادا يمتاز بعضهم بالابداع الفكري وبعض آخر بالابداع الاجتماعي الخ... ولا بأس من توافر أكثر من صفة واحدة من تلك الصفات في الشخص الواحد.

(٢) ان يتسنى لتلك الأقلية تصريف شؤون الملك وحكم البلاد والمجتمع شريطة ان يتعاون افرادها جميعا في أداء مهمتهم على وجهها الأتم من جهة وان يكون هدفهم خدمة البلاد والمجتمع ورفع مستواه المعاشي والفكري من نواحيه المختلفة من جهة أخرى. ولا يتسنى لها ذلك بنظره إلا إذا استطاعت تلك الأقلية الحاكمة ان تكيف ظروف الحياة المادية والفكرية

وفقا لأهدافها وتستذل قوى الطبيعة (بالشكل الذي يمكن استذلاله حسب امكانياتها المادية والفكرية) وتسخر قوى المجتمع لخدمة المصلحة العامة، وفي الوقت نفسه ينبغي لها ان تكون على أتم استعداد لتكييف نفسها وظروفها المادية حسب مقتضيات الظروف ووفقا للمصلحة العامة. هذا في النواحي التي ليس بأمكانها تكييف الظروف وفقا لأهدافها. أي أن الأقلية الحاكمة يجب ان تسير باستمرار نحو الخدمة العامة فتتكيف ظروفها (في بعض الحالات) وتكيف نفسها في حالات أخرى شريطة ان يحصل كل من التكييف في الظروف التي تتطلبه وبالدرجة المعقولة.

(٣) ظروف جغرافية ملائمة وفي مقدمتها طقس مناسب (لا هو بالحار ولا بالبارد) بحيث يسمح لأفراد المجتمع بشكل عام وللطبقة الحاكمة بشكل خاص ان يعبروا عن نشاطهم بأوجهه المختلفة ومجالاته المتشعبة بصورة ايجابية أثناء قيامهم بضروب الاعمال النافعة.

تلك هي العوامل الرئيسة بنظره لظهور الحضارة واستمرارها وهي عوامل متلازمة يعتمد بعضها على بعض آخر ويؤثر بعضها في بعض ولا يمكن من الناحية العملية ان نفصلها عن بعضها. وقد المعنا إلى كل منها على انفراد لغرض التوضيح والدراسة النظرية فقط. ولا بد لظهور الحضارة وأزهارها كما سلف ان ذكرنا من توافر تلك العوامل جميعها -فإذا فقد أحدها أو ضعف اثره صعب بل استحال على الحضارة ان تنمو وتزدهر. والغرض من ذلك بنظر توينبي هو استمرار عملية التكييف والتكيف من جهة ونجاحها في التغلب على العقبات ضمانا لتقدم المجتمع من جهة أخرى. ولا يتم ذلك بنظره الا إذا كانت الاستجابات التي تقوم بها الأقلية

الحاكمة موافقة لمتطلبات الحياة المادية والاجتماعية. ولا تنجح تلك الاستجابات الا إذا كانت على درجة كبيرة من المرونة بحيث تلائم تغير الظروف نفسها. فاذا ظهرت مشاكل جديدة وعقبات جديدة لا تستطيع التصرفات القديمة للفئة الحاكمة ان يتغلب عليها وجب على الفئة الحاكمة (لكي تزدهر الحضارة) ايجا تصرفات جديدة ملائمة (منبثقة) من طبيعة تلك المشكلات ورامية الى التغلب عليها. وهكذا بدون انقطاع. والغرض الرئيس لتلك التصرفات كما ذكرنا هو ادامة المدنية من جميع نواحيها بحيث تصبح في وضع يخدم المصلحة العامة التي يشترك فيها الحاكمون والمحكومون على السواء.

ويعزو توينبي ضعف الحضارة (فتفسخها فانحلالها) الى تغير فلسفة الفئة الحاكمة في الحكم. فبدلا من ان تستمر على خدمة المصلحة فانها تتحول الى فئة مسيطرة لا تهتم الا بخدمة مصالحها (الخاصة) المركزة على حساب مصلحة المجموع او الاكثرية من السكان ويرافق ذلك (وينتج عنه) من وجهة نظر توينبي ان تصبح الفئة الحاكمة في وضع لا يساعدها على التغلب على ما يعترض سبيل المجتمع من عقبات. فتخفق اخفاقا تاما في ابتداع اساليب جديدة تتلاءم هي ومقتضيات الاوضاع العامة المتبدلة. غير ان اخفاق الفئة الحاكمة في ابتداع أساليب جديدة للتغلب على المشكلات الجديدة لا يتضمن حتما جمودها على القديم من الانظمة وقواعد الحكم. انه يتضمن في كثير من الحالات ابتداعها اساليب جديدة للحكم لا تتفق هي ومستلزمات الحياة النامية المتطورة. والنتيجة الحتمية لذلك في المدى

البعيد هي مرور المدينة بسلسلة من الحركات الرجعية التقهقرية تتميز بالمظاهر الثلاثة الآتية:

(١) تعرض المدينة نفسها في كيانها العام الى الضعف والترجرج الامر الذي يؤدي بعد فترة طويلة او قصرة الى (٢) التفسخ والاضمحال في كثير من مظاهر الحياة. وهذا بدوره يؤدي الى (٣) موت الحضارة واندثارها.

ولعل من المناسب ان نقتطف الفقرتين الآتيتين من كتاب توينبي الموسوم "دراسة التاريخ" اذ انهما بنظرنا المحور الذي تدور عليه جميع فلسفته في تفسير التاريخ. اولاهما تبين بنظره ظهور الحضارة وازدهارها والثانية توضح ضعف الحضارة فانهيارها.

لكي تزدهر الحضارة لا بد ان تتوافر:

اولا: موقع جغرافي متميز.

ثانيا: وجود شعب خلاق.

ثالثا: التفاعل الخلاق للتحدي، الرد؛ الانسحاب؛ والبطانة...

المحيط... يتحدى المجتمع، والمجتمع، من خلال الافراد الخلاقين، يرد بنجاح على التحدي.

يتبع ذلك تحدي جديد، ليظهر رد ناجح اخر للمجتمع، وهكذا تستمر العملية بصورة عبقة... في فترة التراجع يخفق الخلاقون في عمل هذا.

ومن الطريف ان نذكر هنا ان رأي تويبني السالف الذكر في التاريخ قد ظهر واضحا في كتابه الذائع الصيت "دراسة التاريخ" الذي بلغت اجزاؤه (حتى كتابة هذه السطور) عشرة اجزاء. كما ظهر كذلك مختصرا في سلسلة المحاضرات التي القاها في العام الماضي عن محطة الاذاعة البريطانية وقد لخصه احد المعقلين تلخيصا بارعا على الشكل التالي.

معتقد توينبي للتحدي والرد يمثل نظرة دقيقة عن التاريخ، والذي يبدو فيه ان كل حضاره تقدم تحدي الى اولئك الذين هم خارج مدارها، واضعة هذا التحدي ومطالبة بالرد لتمد الثقافات التي تحتك بها بالطاقة، الى ان ياتي وقت تسيطر احداها. على المشهد، فقط لتعطي الطريقة في مجرى القرون قبل رد على تحديها الخاص. وعليه فأن كل حضارة تلعب دور الراهب الذي قتل القاتل وقتل نفسه.

٥- هناك تفسيران آخران للتاريخ بالاضافة الى ما ذكرنا يجمل بنا اكمالا للبحث ان نشير الى كل منهما ولو اشارة عابرة هما:

أ- التفسير الفني (او الجمالي) للتاريخ: Aesthetic Interpretation of History

يمتاز هذا التفسير للتاريخ بحداثته وطرافته. واول من قال به على ما يظن الاستاذان السر دبليو ايم فلاندرز ببتري (الانكليزي) Sir W.M Flanders Perti في كتابه "نمو الحضارة" الذي تم طبعه في عام ١٩١٢ و Paul Ligeti العالم الالماني. وفحواه ان هناك علاقة وثقى بين انتشار الفن بأنواعه المختلفة (كالبناء والنحت والرسم والموسيقى الخ) وبين ازدهار الحضارة بجميع مظاهرها المادية والفكرية في مجتمع من المجتمعات. واذا كان الامر كذلك فانه لا بد ان يكون احداهما سببا لحدوث الآخر: فأما ان يكون الفن هو العامل الرئيس في حدوث مظاهر الحضارة الاخرى او ان يكون الفن نفسه نتيجة لتلك العوامل ذاتها (مجتمعة او متفرقة). وبما ان ازدهار الفن حسب وجهة النظر هذه يسبق ازدهار مظاهر الحضارة الاخرى فلابد ان يكون هو نفسه سبب ظهورها ونموها وانتشارها. غير ان الفن من جهة ثانية كما يقول حملة هذا الرأي وان كان (من حيث مجموعه)

العامل الاساس في تقدم الحضارة الا انه (من حيث مكوناته واجزاؤه) يبدأ ضعيفا في بعض جوانبه ومن ثم تقوى تلك الجوانب فتؤثر في ازدهار نواحي اخرى من الفن نفسه وهكذا. وهذه بدورها يؤثر كل منها في نواحي الحياة الاجتماعية الاخرى تاثيرا ربما لا يكون واضحا في كثير من الاحيان. غير ان الفن بمجموعه (بعد اكتمال نموه في جوانبه المختلفة) يؤثر بمجموعه في الحضارة تأثيرا واضحا. فالفن اذن يسير في نموه وفق قاعدة لا يحيد عنها. فيبدأ اولا فن البناء والعمران المتصل بتخطيط المدن وتشييد القصور والمعابد والهياكل وما شاكلها ومن ثم ينمو هذا الفن ويزدهر ويتنوع ويتعرض لكثير من جوانب التقدم والابداع فتبعه فن الموسيقى من حيث الانغام والآلات وعدد العازفين والمستمعين. فيلي ذلك الرسم فالنحت فالآداب نظما نثرا...

واذا سلمنا بذلك كما يدعي حملة هذا الرأي وهو امر- كما يقولون غير مشكوك في صحته من الناحية التاريخية اصبح لزاما علينا ان نبحث في اسباب حدوثه على الشكل الذي وصفناه. واذا تم لنا ذلك أصبح بمقدورنا على حد قولهم تعيين موقع الفن بشكله العام وبفروعه المتعددة بالنسبة لسير الحضارة البشرية ومجرى التاريخ الانساني. واذا تسنى لنا ذلك اصبحنا في وضع يساعدنا على معرفة الصلة بين الفن ونشوء العلم وبينه وبين الفلسفة والدين والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من اوجه الحياة الاجتماعية. وبعد التحليل الدقيق لكل ذلك سنصل حتما الى ان الفن هو الاساس الذي تستند اليه مظاهر الحياة الاجتماعية الاخرى. غير ان الفنون بأنواعها المختلفة كما سلف ان ذكرنا لا تزدهر جميعها في المجتمع نفسه في آن واحد بل هي تتبع في نموها وازدهارها التسلسل الذي مرت الاشارة اليه. فإذا ازدهرت عموما بعد مرور فترة مناسبة من الزمن اثر

ازدهارها في سير التاريخ الانساني وفي تقدم الحضارة في جميع جوانبها. واذا ذوت تلك الفنون فانها كذلك تميل الى ان تذوى معهـا اوجـه التقـدم الحضاري الاخرى. ذلك لان الفن مثل الجسم الانساني كما يخبرنا دعاة هذا الرأي يتعرض لسلسلة من التغيرات: فهو يولد طفلا صغيرا ثم ينمو فيهرم فيموت...

ب- تفسير الفيلسوف برتراند رسل للتاريخ:

يعتقد الفيلسوف الانكليزي المعاصر برتراند رسل بأن القوة هي العامل الاساس في تغيير مجرى التاريخ البشري داخل حدود الامة الواحدة وبـين الامم كذلك. والقوة من الناحية الاجتماعية بنظره مثل الطاقة في الفيزيـاء الحديثة تأخذ اشكالا مختلفة في التعبير عن نفسها. فكما ان الطاقة تظهـر تارة على شكل ضوء واخرى على شكل مادة وطورا على شكل قوة للجذب او للمغنطسة الخ... فكذلك الحال في القوة في المجتمع تظهر أحيانا علـى شكل حروب دموية وأخرى على شكل حروب فكرية وثالثة على شكل تقدم فني أو اقتصادي الخ...

***

مناقشة تفاسير التاريخ التي استعرضناها:

استعرضنا في الصفحات السابقة آراء طائفة من الفلاسـفة والمفكـرين تتصل بتفسير التاريخ وتعليل وقوع حوادثه وكانت تلك الآراء تختلف عـن بعضها اختلافات كثيرة. غير انها مع هذا تشترك جميعا في الاعتماد علـى أساس مشترك والتسليم بصحته المطلقة: هو ان حوادث التاريخ تقع نتيجة لعامل واحد: هو العامل الجغرافي أو العامل الاقتصادي او العامل الروحـي الخ... اي انها تسلم بوحدانية العامل التاريخي وان اختلفـت فـي نوعـه. ويكون ذلك العامل (بغض النظر عن نوعه) سابقا (في الزمـان والمكـان)

لوقوع الحوادث التاريخية التي تصبح بدورها نتيجة له. الواقع ان الحوادث التاريخية (والحوادث الاجتماعية بشكل عام) لا تخضع في وقوعها لعامل واحد منفصل عن التعاون مع (او التباعد عن) عوامل اخرى. وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول ان كل حالة اجتماعية (ماضية او حاضرة) يكون سبب وقوعها ناتجا عن توافر اكثر من عامل واحد. غير ان تعدد العوامل لا ينبغي ان يفسر بان تلك العوامل جميعا تكون متكافئة في الاثر او متساوية في الدرجة. ان بعض تلك العوامل دون شك اقوى من بعض آخر. فتارة يكون العامل الاقتصادي هو العامل الحاسم في تفسير حادثة من الحوادث ولكنه ليس العامل الحاسم في تلك الحالة من جهة او انه يكون كذلك في جميع الحالات (الماضية او الحاضرة أو المستقبلة) من جهة أخرى. كل ذلك يتوقف على دراسة كل حالة على انفراد لمعرفة العوامل الداخلية في حدوثها اولا واستجلاء كنه العامل الحاسم في ذلك الحدوث ثانيا.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فأن مجيء شيء (او حادثة) في اعقاب شيء آخر (او حادثة اخرى) لا يستلزم حتما ان يكون الاول سببا لحدوث الشيء الثاني أو ان الشيء الثاني حدث نتيجة لوجود الشئ الاول فمجيء الليل في اعقاب النهار مثلا لا يعني ان النهار سبب حدوث الليل او ان الليل حدث نتيجة لوجود النهار. ويصدق الشئ نفسه على تتابع فصول السنة. اذ ربما يكون حدوث الشيئين (الحادثين) المتعاقبين هو نفسه نتيجة الى عامل آخر او عوامل اخرى. فحدوث كثير من الامراض (وظهور مضاعفاتها او اختلاطاتها احيانا) امثلة من هذا القبيل. وتتميز الظواهر الاجتماعية (فردية او جماعية) كما سلف ان ذكرنا بتعدد اسباب حدوث كل منها. فربما طلق زيد زوجته مثلا نتيجة لفقره او لوقوعه في شراك حب فتاة اخرى او لخيانتها له او لاعتقاده بحصول مثل تلك الخيانة او لانها عقيمة او لانها لا

تلد له ذكرا او لانها لا تنسجم مع افراد عائلته الخ... وربما طلقها لتوافر اكثر من عامل واحد مما ذكرنا. وقد يهاجر عمرو من العراق الى الولايات المتحدة حبا بالمال او الجاه او تخلصا من الاضطهاد الديني او الاجتماعي الخ... وربما كانت هجرته نتيجة لاكثر من عامل واحد.

وعندي اذا كان لي عندكما يقول الجاحظ ان كل نظرية من النظريات التي ذكرناها تلقي ضوء على احد جوانب التاريخ وتفسر بعض حوادثه تفسيرا جزئيا لا كليا. فالعوامل الجغرافية شرط ضروري لتغيير مجرى التاريخ. ويصدق الشئ نفسه على العامل الاقتصادي وعلى وجود الاقلية المبدعة وعلى توافر الزعماء في مختلف ميادين الحياة. غير ان كل عامل من هذه العوامل (وغيرها) على انفراد وان كان شرطا لازما لتغيير مجرى التاريخ الا انه ليس بنفسه كافيا. واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان مجرى التاريخ يتبدل وفقا لعوامل كثيرة العدد متشابكة الاجزاء يستحيل فصلها من الناحية العملية. فتقدم الحضارة وانحطاطها ونشوب الحروب والمنازعات بين الدول وحدوث الانقلابات السياسية والعسكرية وما شاكلها تخضع جميعها للقاعدة العامة التي ذكرناها. ويتجلى ضعف النظريات التي ذكرناها اكثر في ما تغفله من حوادث التاريخ منه في الحوادث التي تستشهد بها لاثبات نفسها. يضاف الى ذلك ان في كل منها جوانب ضعيفة لا يصح السكوت عنها. لذلك نرى من المفيد ان نتصدى للبحث في كل منها بشيء من الايجاز غير المخل. واذا استثنينا التفسير الجغرافي والتفسير المادي ونظرية شبنكلر وتوينبي امكننا ان نقول بأن الآراء التي شرحناها (وبخاصة رأي هيكل) لا تستحق المناقشة لضعفها وانتفاء الجانب العلمي في منطقها. ويكفي لدحض الاسس التي يستند عليها القائلون بتفسير التاريخ تفسيرا جغرافيا وبخاصة ما يتصل بالمناخ ان ننبه القارئ الى وجود الاختلافات

الكثيرة من الناحية الحضارية بين الاقطار ذات المناخ المتقارب من جهة واختلاف الحضارة نفسها في القطر الواحد مع بقاء مناخه ثابتا من حيث الاساس من جهة اخرى. فالمجتمع العراقي في الوقت الحاضر من ناحية موقعه في مجال الحضارة الانسانية يختلف عنه في القرن الماضي ويصدق الشيء نفسه على حالة المجتمع العراقي ابان الحكم العباسي. هذا مع العلم بأن مناخ العراق من حيث الاساس (اللهم الا في حالات طفيفة غير ذات اثر كبير في تقدم الحضارة او تقهقرها) لم يطرأ عليه تغيير يستحق الذكر. والولايات المتحدة في الوقت الحاضر من حيث تقدمها المادي والفكري تختلف كثيرا عنها قبل ان يكتشفها كرستوفر كولمبس او بعد اكتشافه لها بوقت قصير. فقد حدث هذا التغير الكبير في ذلك القطر دون ان يحصل (كما يخبرنا علماء الطقس والجغرافية) تغيير كبير في مناخها. وروسيا السوفيتية في الوقت الحاضر من الناحية الحضارية ومن ناحية اهميتها في العائلة الدولية غيرها قبل عام ١٩١٧ هذا مع ان مناخها من الناحية الجغرافية لم يحصل عليه اي تغيير يستحق الذكر في الستة والثلاثين السنة الماضية. وعدد الامثلة في هذا الصدد أكثر من ان يحصى.

واذا نظرنا للموضوع من زاوية أخرى أمكننا ان نقول انه من الممكن وجود حضارتين متقاربتين في جوانبهما المادية والفكرية في قطرين يختلفان كثيرا في جوانبهما المناخية. فالوضع الحضاري في مصر في الوقت الحاضر لا يختلف كثيراً عنه في تركيا مثلاً مع اختلاف كبير في المناخ. والأوضاع الحضارية العامة في بلاد الاسكيمو لا تختلف كثيراً عنها في بعض مناطق افريقية الوسطى مع هذا الاختلاف الشديد في المناخ. وحضارة جمهوريات امريكا الجنوبية في الوقت الحاضر لا تختلف كثيراً من حيث الأساس عن الحضارتين الاسبانية والبرتغالية في حين ان مناخ تلك

الجمهوريات يختلف كثيرا عن مناخ اسبانيا والبرتغال. يضاف إلى ذلك كله أثر الانسان في تكييف البيئة من الناحية المناخية وفقا لحاجاته وامكانياته المادية والفكرية. فوسائل التبريد (في المناطق الحارة) ووسائل التدفئة (في المناطق الباردة) جعلت الانسان في وضع استطاع معه التغلب على الطقس من حيث الحرارة والبرودة. اما الآثار الأخرى التي تركها فعل الانسان في بيئته الطبيعية فكثيرة وبعضها ماثل للعيان. نذكر منها على سبيل المثال التغلب على المسافات بوساطة وسائل النقل الحديثة في البر والبحر والجو وحفر القنوات وشق الترع واستعمال الوسائل الحديثة في الزراعة. ولعل من المفيد ان ذكر هنا ان بعض العلماء في روسيا والولايات المتحدة استطاعوا ان يحدثوا تغييرات كبيرة في الغمام ويجعلوا الغيث ينزل في الاماكن التي هي بحاجة اليه بوساطة رش المادة الكيمياوية المسماة (Solid Carbon Dioxide Powder) على السحب. ويلوح للباحث أن خضوع الانسان لقوى الطبيعة (وبخاصة للعوامل الجغرافية) يتجلى بأوضح مظاهره إذا كان الانسان يعيش في مجتمع بدائي (أوقريبا من ذلك) من الناحيتين الفكرية والمادية. وما الحضارة في واقعها الا قدرة الانسان على استذلال قوى الطبيعة واخضاعها لمشيئته. ففي الحالة الأولى يكيف الانسان نفسه لبيئته وفي الحالة الثانية تنعكس الاية حيث يكيف الانسان بيئته وفقا لأهدافه وحاجاته. غير ان خضوع الانسان للطبيعة (او اخضاعه لها) لا يخلو من التأثر بعوامل اجتماعية وسياسية ودينية تتصل بعادات المجتمع وتقاليده من جهة وبتقدمه المادي والفكري من جهة أخرى. فالثروة المعدنية لا تؤدي من نفسها إلى أزدهار الحضارة ما لم يستطع المجتمع استخراجها واستعمالها لخدمته.

ويصدق الشيء نفسه على الثروة النباتية والحيوانية. فمعاملة الانسان للبقرة والكلب والخنزير مثلا تختلف بأختلاف عقائده الدينية والاجتماعية ولا يدخل العامل الجغرافي في ذلك إلا عرضا. فتعتبر البقرة مثلا في بعض المناطق مخلوقا مقدسا وفي مناطق أخرى تستعمل للذبح. ويحرم أكل لحم الخنزير في بعض الأقطار ويحلل في الغرب. ويقدم لحم الكلب للضيوف في بعض مناطق الصين ويحرم في مناطق أخرى وفي أقطارأخرى. كل ذلك وما يتبعه من آثار في الصناعة والتجارة نتاج تقاليد المجتمع وعاداته اكثر منه نتاج البيئة الطبيعية. فالديانة الهندوسية (لا مناخ الهند) هي العامل الرئيس في تأخر انتاج الماشية ومستخرجاتها لاغراض تجارية. والديانة البوذية (بتحريمها قتل النفس) وضعت حدودا لانماء ما يسمى بـ Mulbery or the rearing of silk- worms ويجمل بنا قبل ان ننتهي من التعليق على التفسير الجغرافي للتاريخ ان ننبه القارئ الى ان معظم الجغرافيين المعاصرين يعتبرون العوامل الجغرافية شرطا لتقدم الحضارة والانسان ومن ثم تغيير مجرى التاريخ ولكن تلك العوامل مع هذا ليست لوحدها كافية لاحداث مثل ذلك التغير. وتعرف نظريتهم هذه جغرافيا بأسم Possibilism ولعل اول من قال بها من الجغرافيين المحدثين Vidal de la beache (1877- 1918) استاذ الجغرافية بجامعة باريس، وتبعه آخرون وبخاصة الجغرافيون الذين تخصصوا بدراسة التاريخ ثم انتقلوا منه الى الجغرافية. اما الجغرافيون الآخرون (امثال هنتكتن الذي مرت الاشارة اليه) فيعرف رأيهم جغرافية بـ Environmentlaism وقد ضعف اثرهم في الوقت الحاضر.

ذلك ما يتصل بمناقشة أسس التفسير الجغرافي للتاريخ. اما ما يتصل بالتفسير المادي للتاريخ فباستطاعتنا ان نقول ان اعتبار العامل الاقتصادي الدافع الاساس الوحيد الذي يوجه سلوك الناس امر لا يخلو من التطرف والمبالغة. فالعامل الاقتصادي وان كان هاماً في تغيير مجرى التأريخ الا انه على ما نرى ليس العامل الاساس الوحيد ذلك لانه غير منفصل عن غيره من العوامل الاجتماعية والنفسية بل هو موجود بشكل يستحيل فصله (من الناحية العملية) عن العامل الجغرافي والديني والثقافي والجنسي والعنصري الخ... قد يكون العامل الاقتصادي هو العامل الاساس الوحيد في بعض الحالات وقد يكون عاملا اساسا في حالات اخرى وقد يكون عاملا ثانويا في حالات ثالثة. يضاف الى ذلك ان العامل الاقتصادي يؤثر بغيره من العوامل ويتأثر بها كذلك. فيوجهها وتوجهه. قد يكون سبباً لتفسير كثير من حوادث التاريخ وقد يكون نتيجة لعوامل اخرى. ويجمل بنا ان نشير في هذه المناسبة الى ان القول بأهمية اثر العامل الاقتصادي في مجرى التاريخ يعود من الناحية التاريخية الى ارسطو الفيلسوف اليوناني الذي عاش قبل زهاء خمسة وعشرين قرناً. فقد بحث ارسطو أثر العامل الاقتصادي في مجرى التاريخ في كتابه المسمى "السياسة". وبعبارة اخرى ان مشكلة سوء توزيع المنتجات (المادية والمعنوية) بين افراد المجتمع قد بحثت قبل ظهور ماركس. غير ان تلك البحوث كانت تفتقر الى العمق والشمول والدقة وذلك لان معظم الكتاب الذين سبقوا ماركس لم يعطوا الناحية الاقتصادية (من ناحية الانتاج والتوزيع) ما تستحقه من العناية والبحث. اي ان بحثهم في الجانب الاقتصادي كان جانبياً وعرضياً حيث اعتبروا الناحية الاقتصادية

تابعة للناحية السياسية. ولعل طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية السائدة (قبل ماركس) لم تكن على درجة كبيرة من التعقيد بحيث تشجع الكتاب على معالجة جوانبها الاقتصادية بعمق وشمول.

واذا ما تصفحنا التاريخ بشكل عام في الماضي والحاضر فأننا لا نعدم امثلة توضح حدوث تغييرات اساس في النظم السياسية والاجتماعية لكثير من الاقطار كنتيجة لظهور عوامل دينية او عسكرية دون ان يكون للعامل الاقتصادي القدح المعلى فيها. ان هذا لا ينبغي ان يفسر بأنعدام اثر العامل الاقتصادي في ذلك بل انه يتضمن عدم اعتبار العامل الاقتصادي هو العامل الاساس الوحيد في حصول ذلك التغيير خاصة واذا علمنا ان العامل الاقتصادي نفسه (الذي يؤثر في ما يتبعه) هو نفسه ناتج عن اثر عوامل اخرى سبقته. هذا من جهة ومن جهة ثانية فأن العامل الاقتصادي نفسه بدوره يتأثر بالآثار التي يحدثها. وهكذا.

اما القول بأن الثورة او حرب الطبقات هي السلاح الوحيد لحل مشكلات المجتمع فليس صحيحاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق. فالثورة بطبيعتها عامل هادم كثيراً يفشل في علاج مشكلات المجتمع وقد يؤدي احياناً الى تعقيد تلك المشكلات لا الى حلها. واذا لم يعقب الثورة دور يسود فيه الاستقرار والطمأنينة فأن آثارها المخربة تبقى ماثلة للعيان. واذا سلمنا بأن دور الاستقرار هو الذي يجعل امر معالجة مشكلات المجتمع ممكناً جاز لنا ان نقول ان التعاون المبنى على التفكير الحر الذي يهدف الى خدمة المصلحة العامة هو الاسلوب الانساني الوحيد الذي ينبغي الالتجاء اليه في هذا الصدد ذلك لان استعمال القوة كوسيط لحل مشكلات المجتمع

المستعصية كثيراً ما يؤدي بطريقة غير مباشرة الى نبذ التعـاون والبحـث العلمي المنظم وعدم تشجيع الاخذ بهما حتى في الحالات التـي لا يتطلـب حلها استعمال مثل تلك القوة. والثورة بالاضافة الى ذلك قـد تـشل تقـدم المجتمع وتهدر كثيرا من موارده وامكانياته الماديـة والفكريـة. وحـرب الطبقات كذلك وسيلة من وسائل قطع الصلة الفكرية والعاطفية بين ابنـاء المجتمع. وهي تؤدي في العادة الى سيطرة طبقة جديدة من الحكام لتحـل محل الطبقة المغلوبة على امرها. وكل نظام يستند على العنف في مقوماته يجعل كثيرا من الناس صرعى ايمانهم المطلق بصحة ذلك النظام فيقل فيهم التفكير في تغييره وتعوزهم القدرة على احـداث ذلـك التغييـر. والثـورة بالاضافة الى ذلك توحي للفئة الحاكمة (التي جاءت للحكـم بوسـاطتها) ان تستمر في حكمها وان تستعمل جميع الوسائل الممكنة لاقناع المحكـومين بضرورة الرضوخ لها رضوخا تاما فتسيطر على وسائل العنـف والنـشر وتوجه السكان نحو احتمال وجود خطر (خارجي او داخلي) لتصرفهم عـن معالجة شئونهم الداخلية ومحاسبة الحكومة على اعمالها. ثم اذا كانت كـل مرحلة من مراحل تطور المجتمع تحمل معها بذور نقيـضها كمـا يـدعي ماركس فما هي الحاجة الى الثورة خاصة؟ واذا سلمنا جدلا بأن الثـورات الدموية كانت العامل الحاسم في حل مشكلات المجتمع في الماضـي فهـل معنى هذا انها سوف تكون كذلك في حل مشكلات المجتمع في المستقبل؟ ثم الم يحدث تغيير اساس في حياة المجتمع الانساني الحديث نتيجـة لتطـور العلم وتطبيق مخترعاته على الحياة بطريقة سلمية وبدون عنف او قـسوة او ثورة دموية؟ هذا الى ان المشاهد لا يؤيد القول بـأن الاغنيـاء طبقـة

واحدة في جميع انحاء العالم. فالأغنياء واصحاب المصالح والمال كثيرا ما يقف بعضهم في سبيل بعض آخر ويسعى بعضهم لاحباط مشاريع بعض آخر. يظهر ذلك بينهم في الامم المختلفة وداخل حدود الامة الواحدة ويصدق الشيء نفسه على العمال. هذا الى ان هناك روابط عنصرية ودينة وقومية وثقافية تربط بعض اصحاب المال ببعض العمال ضمن حدود الامة الواحدة وتجعلهم يقفون جنبا الى جنب في وقت الازمات (الداخلية او الخارجية) وبخاصة حينما يشعرون بتعرض كيان بلدهم الى خطر داهم. وفي التاريخ امثلة كثيرة تدل على وقوف اصحاب المال والعمال المنتمين الى بلد واحد ضد زملائهم في بلد آخر اثناء الحروب والمنازعات. هذا الى ان حملة التفسير المادي للتاريخ لم يفسروا لنا كيف يصبح الانسان غنيا ولم يوضحوا العوامل الاساس التي جعلت المجتمع ينقسم الى فقراء واغنياء من الناحية العملية. (الفقر والغنى امران نسبيان يختلفان بأختلاف المجتمعات وبأختلاف تطور المجتمع نفسه في فترات تكوينه من الناحية التاريخية. فكثير من فقراء الحاضر يمكن اعتبارهم اغنياء بالنسبة للمجتمع الغابر. وفقراء الولايات المتحدة المعاصرون يجوز اعتبارهم اغنياء بالنسبة للمجتمعات المتخلفة عن ركب الحضارة. ولكن مع هذا يستطيع الباحث ان يقول ان الفجوة بين الفقر والغنى في الوقت الحاضر اكبر منها في الماضي).

قد يقال ان الانسان يصبح غنيا عن طريق الارث. ولكن كيف استطاع اول غني ان يكون كذلك؟ قد يرد على هذا بأن النظام الاقتصادي الفاسد هو الذي جعله كذلك. ولكن من جعل النظام الاقتصادي الفاسد فاسدا؟ ولماذا

يصبح الناس متساوين؟ من الناحية الاقتصادية؟ أو لماذا لم يصبح الاغنياء فقراء او بالعكس على الاقل؟

لقد مر بنا القول ان دعاة التفسير المادي للتاريخ فرضوا ان الشيوعية لا تتحقق الا بعد ان تسبقها ثورة طبقية ينتقل فيها الحكم من الطبقة البرجوازية (او من الحكومة المستندة عليها) الى طبقة العمال (البروليتارية)التي يسود فيها المبدأ الاقتصادي القائل (من كل حسب قدرته الى كل حسب انتاجه). ولكنهم لم يحددوا ما يقصدونه بكلمتين "قدرته" و "انتاجه" ولم يبينوا كذلك كيف تقاس قدرة الشخص ويقدر انتاجه. واذا علمنا بصورة عامة ان القدرة (وبالتالي الانتاج المنبثق عنها) يمكن ان تنقسم الى ثلاثة اقسام: قدرة جسمية وفكرية وفنية. فكيف اذن تقاس تلك القدرات وتقدر كل منها حسب قدرها بالموازنة لبعضها؟ ثم ان الانتاج نفسه يمكن ان يكون معنويا (اي ليس له وجود مادي مستقل بذاته) كما هي الحال في الشعر والموسيقى فكيف تقدر قيمته بالنسبة للانتاج الجسمي؟ فهل يقاس الانتاج بكميته أم بنوعه؟ ومن هو الحكم الفصل في امثال هذه الامور؟

ثم ان حملة التفسير المادي للتاريخ لم يذكروا لنا كيف يتم الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية. ايتم ذلك عن طريق الثورة على حكام طبقة البوليتارية؟ ام ان هؤلاء الحكام يتنازلون من أنفسهم عن سلطتهم؟ واذا صح الفرض الاول فهل يبرر (اصحاب نظرية التفسير المادي للتاريخ) الثورة على حكام الطبقة البروليتارية؟ ومن يقوم بذلك؟ واذا صح الفرض الثاني (وهو ما يمكن ان يوافق عليه حملة ذلك الرأي) فان حدوث ذلك

مستحيل (حسب منطوق المذهب الدايلكتيكي) لان الحاكمين كما سلف ان ذكرنا يحاولون التمسك والاستعانة بجميع الوسائل الممكنة للمحافظة على الوضع القائم واحباط جميع المحاولات التي تتضمن الانتقاض عليه. اقول اذا صح هذا الفرض (لغرض المناقشة) وتنازل حكام البروليتارية عن امتيازاتهم بمحض ارادتهم فأن مفعول الطريقة الدايلكتيكية يزول وهو امر لا يسلم به دعاة هذا المذهب. فنحن اذن في حلقة مفرغة لا سبيل الى الخلاص منها. ولنفرض جدلا ان دكتاتورية العمال تحولت بطريقة سحرية الى مجتمع ينعدم فيه وجود الطبقات فأن ذلك يعني انتهاء مفعول الطريقة الدايلكتيكية وبأنتهائها ينتهي مفعول قانون نفي النفي (الذي مر بنا شرحه) القائل بأن كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع تحمل معها بذور نفيها او نقيضها. ولا ندري ما هو نوع المجتمع الذي سيوجد بعد انتهاء المجتمع الشيوعي؟ واذا اخذنا بنظر الاعتبار النظرية الدايلكتيكية فأن المجتمع الذي سيوجد حتما يجب ان يكون نقيض المجتمع غير الطبقي وسيكون في هذه الحالة ان نعود إلى مجتمع طبقي. وهكذا ناخذ بالشمال ما نعطيه باليمين. اما إذا فرضنا ان المجتمع غير الطبقي هو آخر مرحلة من مراحل نمو المجتمع وان الانسان سيتجه آنذاك إلى مغالبة الطبيعة واستذلالها وتسخيرها لمصالحه فأن ذلك يتضمن حتما بطلان مفعول الطريقة الدايلكتيكية من جهة كما يتضمن زوال مفعول قانون التغير (الذي يعتبره أصحاب التفسير المادي للتاريخ) القانون العام الذي يخضع لتاثيره الكون والمجتمع والانسان من جهة اخرى.

اما القول بأن الحكومة سائرة بالتدريج نحو الزوال وانه سينعدم وجودها في المجتمع غير الطبقي في المستقبل فقول يدل اتجاه العالم الحديث في سيره على عكسه. فقد ازدادت سلطات الحكومة وتعددت وظائفها عن قبل. وإذا جاز للانسان ان يتنبأ بالمستقبل (وهو امر محفوف بالمخاطر والمجازفات) فان في مقدوره القول بأن الحكومة ستبقى ما بقيت الانسانية. وستتعدد وظائفها وتكثر مسؤلياتها. غير انه سيحدث (في المدى البعيد) تغيير جوهري في نوعها وفي تحديد علاقاتها بسائرأفراد الشعب. اننا نعتقد بأن العالم (إلا في المجتمعات الدكتاتورية وهي حالات ناشزة عن السير الطبيعي العام للجنس البشري) سائر نحو كبت سلطات الحكومة المبنية على محافظة المصالح المركزة لبعض الافرادمن جهة ونحو الاكثار من هيمنة الشعوب على حكوماتها لتوجيهها نحو خدمة المصلحة العامة من جهة اخرى. ثم اذا كان المبدأ الاقتصادي الذي سيسود في المجتمع غير الطبقي هو المبدأ القائل "من كل حسب قدرته على كل حسب حاجته" ألا يحق لنا ان نسأل عما إذا كانت كلمة " حاجة" الغامضة المعنى هي نفسها بحاجة إلى سلطة تعينها وتحدد مفهومها وتحاول ان تجهز الفرد بالمقدار الذي تظن انه يسدها من المنتجات المادية والفكرية؟ وبعبارة أخرى أليست تلك الحاجة بحاجة إلى من يعين مقدارها ونوعها ووسيلة اشباعها وتوجيهها في حالة تصادمها مع حاجات الافراد الاخرين أو مع الحاجات الأخرى للفرد نفسه؟

يبدو ان ضعف التفسير المادي للتاريخ لا يتضح فيما يستشهد به حملته من الأمثلة التاريخية لتأييد صحته بقدر وضوحه في اهمال الأمثلة

التاريخية التي لا تتفق هي والمذهب المادي. اننا لا نعتقد بأن هناك أحدا من المفكرين ينكر أثر العامل الاقتصادي في اثارة الحروب والمنازعات داخل حدود الأمة الواحدة وبين الأمم كذلك (في الماضي والحاضر وربما في المستقبل). غير ان هؤلاء المفكرين يختلفون عمن يفسر التاريخ تفسيرا ماديا في قولهم بأن عوامل أخرى قد تكون أكثر أهمية في بعض الحالات التاريخية من العوامل الاقتصادية في تغيير مجرى التاريخ -وفي مقدمة تلك العوامل العامل الديني والمذهبي والعنصري والعسكري الخ... ثم ألم تكن القيادة (عسكرية وسياسية محنكة أم ضعيفة) في بعض الحالات عاملا حاسما في تغيير مجرى التاريخ؟ قد يرد على ذلك بأن العوامل السالفة الذكر يمكن اعتبارها (بعد التحليل الدقيق) ناتجة عن العامل الاقتصادي. غير ان الباحث من الجهة الثانية يستطيع ان يرد على ذلك بقوله ان العامل الاقتصادي نفسه يكون احيانا نتيجة لعوامل غير اقتصادية. كل ذلك يتوقف على طبيعة المشكلة التاريخية التي بين يدي الباحث بعد ان تحلل تحليلا علميا مضبوطا. غير ان هذا النوع من التحليل دون شك ليس من الامور الهينة في القضايا الاجتماعية بشكل عام وفي الوقائع التاريخية بشكل خاص. وتتجلى تلك الصعوبة إذا علمنا ان مشكلة البحث عن العلة أو السبب من اصعب الأمور حتى في مجال الطب الحديث المستند إلى البحث العلمي من ناحيتيه النظرية والتجريبية المختبرية. ويكفي لتبيان تلك الصعوبة وتوضيح ما يحتاج اليه الباحث من جهد ووقت وتفكير وتجريب ان نشير الى ما بذله العلماء المعاصرون من جهود فكرية ومادية في سبيل التوصل الى معرفة سبب حدوث مرض الملاريا.

كان المشتغلون في موضوع مرض الملاريا قد توصلوا في مطلع القرن الحاضر (بالاستناد إلى بحوث من سبقهم من الناحيتين النظرية والتجريبية من جهة، والاستعانة بمحاولاتهم الخاصة من جهة أخرى) الى القول بأن مرض الملاريا يقع ضمن مجموعة الأمراض التي تنقلها الحشرات. فأصبح هذا الفرض بدوره عاملاً من عوامل تحديد بحوثهم التجريبية وتوجيه أنظارهم عمليا في ذلك المجال دون سواه. وقد توصل بعضهم بعد درس وتمحيص ليسا بالقليلين الى صحة ذلك الفرض. فقويت الفكرة القائلة بأن مرض الملاريا هو من ضمن الامراض التي تنقلها الحشرات. وقد عمل ذلك بدوره على البحث في نوع الحشرات التي تحمل ذلك المرض. فأجريت البحوث العلمية في هذا المجال دون سواه وتوصل أصحابها إلى القول بأن البعوض هو الذي ينقل هذا المرض. ثم تحدد البحث بعد ذلك كثيراً حيث وجد ان نوعا معينا من البعوض دون سواه ينقل هذا المرض. وهو البعوض الـ Anopheles. ولم يقف البحث عند هذا الحد بل تعداه إلى ضرورة معرفة الحالات التي ينقل بها البعوض المار ذكره مرض الملاريا. حيث وجد ان ذلك البعوض بالذات لا ينقل دائما مكروب مرض الملاريا بل هو يفعل ذلك في حالات خاصة. فتركز البحث على دراسة تلك الحالات الخاصة حيث ظهر ان ذلك النوع من البعوض لا يحمل مكروب المرض الا اذا لسع شخصا مصابا بذلك المرض. وبهذه الطريقة استبعد العلماء جميع الفرضيات الاخرى لعدم تأييدها من ناحية البحث التجريبي. وقالوا ان مكروب مرض الملاريا لا ينقله نوع معين من البعوض في حالات معينة فقط شريطة ان تلسع البعوضة شخصا مصابا بالمرض ومن ثم تلسع

شخصا آخر سليما. وقد ايد ذلك ما احدثه ردم المستنقعات من آثار في تقليل المرض عن طريق قتل البعوض ومنعه من التفريخ. وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا ان نقول ان البحث العلمي المركز يسير (نظريا وتجريبيا) على المبدأ الآتي: If- and- only- if, then ومجال البحث العلمي في هذا الموضوع ما زال مفتوحا وسيبقى كذلك. وسيستمر التسليم بصحة ما توصل اليه العلماء الآن الى ان يحدث ما لا يتفق معه نظريا وتجريبيا. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان علماء الاجتماع المعاصرين (وبخاصة في الولايات المتحدة) يقومون بدراسة علمية احصائية لكثير من المشكلات الاجتماعية (كالطلاق والزواج او التعصب او البطالة الخ...) لمعرفة اسبابها ونتائجها. ولا يعدم التتبع لبحوثهم من ان يلاحظ صعوبة فصل الاسباب الاجتماعية عن نتائجها من جهة وصعوبة عزل بعض العوامل المؤثرة عن بعض آخر من جهة ثانية وصعوبة التسليم بأن هناك سببا واحدا لحدوث المشكلات الاجتماعية في جميع الحالات وفي مختلف البيئات والازمان من جهة ثالثة. هذا في حقل المجتمع ومشكلاته الحاضرة ويصعب الامر كثيرا عند البحث في موضوع التاريخ وحوادثه الماضية. وعمليات التحقيق التي تقوم بها المحاكم والشرطة في الوقت الحاضر لمعرفة اسباب ارتكاب الجرائم من اوضح الامثلة على صعوبة بوجود عامل (بغض النظر عن نوعه) في حدوث تلك الجرائم. وكلما كان التحقيق نزيها ودقيقا وعلميا ظهر تعقد المشكلات الاجتماعية من جهة واحتمال وجود اكثر من سبب واحد لوقوع الحوادث الاجتماعية من جهة ثانية.

وقبل ان ننتقل الى مناقشة رأي شبنكلر وتوينبي نود ان نهمس بأذن اصحاب التفسير المادي للتأريخ فنقول ألم تؤد قضية غرام الملك هنري الرابع بآن بولين الى خروج انكلترا وبخاصة العائلة المالكة من حضيرة الامم التي تعتنق المذهب الكاثوليكي؟ الم يكن لذلك الخروج أثر في تغيير مجرى التاريخ الاوربي بشكل عام والتاريخ الانكليزي بشكل خاص؟ ثم الم يكن لجمال كليبوترا ولطافة انفها بشكل خاص (حسب مقاييس بعض ملوك زمانها) أثر في مجرى التاريخ؟ ما علاقة العامل الاقتصادي بذلك؟ هذا من جهة ومن جهة ثانية أليس باستطاعة المؤرخ احيانا ان يرتب المراحل الثلاث (التي يسير التاريخ حسب مقتضاها على ما يزعم حملة التفسير المادي للتاريخ) كما يشاء فيقول مثلا ان الديمقراطية رد فعل او نفي للشيوعية وان النازية هي نفي النفي (وهذا القول بالطبع لا يروق لحملة التفسير المادي للتاريخ لاعتبارهم ان الحركة النازية حركة رجعية تدل على انتكاسة عامة وقتية في سير التاريخ)، ولكنه مع هذا يدل على ان الحدود الفاصلة بين المراحل الثلاثة امر نسبي يختلف باختلاف الباحثين. واذا كان اعتبارنا للنازية كأنها نفي النفي خطأ (من جهة نظر اصحاب التفسير المادي للتاريخ) فما موقع النازية في التفكير الماركسي؟ ثم ان التصادم بين المتناقضين قد لا يؤدي دائما الى ظهور شيء ارقى منها بل ربما ادى الى تحطيم احدهما او تحطيمهما معا –من ذلك ان حملة هولاكو على بغداد لم تود الى نشوء حضارة جديدة ارقى من احدى الحضارتين (اذا جاز لنا ان نعتبر ان للمغول حضارة) او ارقى منهما معا.

وقبل ان اختتم مناقشة التفسير المادي للتاريخ اود ان أقول ان ملاحظاتي العابرة تلك قد تصادف هوى في نفوس بعض القارئين وقد لا يتفق معي عليها بعض آخر. وظاهرة الاختلاف في الرأي لا ينبغي ان تدعو الى الاستغراب والامتعاض ذلك لان الانسان يكتسب مقاييسه في الحكم على قيم الاشخاص او الاشياء أو الحوادث او الآراء من المصادر الثقافية التي يتعرض لتاثيرها. وتصبح تلك المقاييس بمرور الزمن جزء لا يتجزأ من كيانه. وبعبارة ادق يصبح الانسان نفسه جزء منها خاضعا لها خضوعا تاما او قريبا من ذلك. ولا يستطيع الكثيرون من الناس في كثير من الاحيان ان يناقشوا مناقشة علمية اعز معتقداتهم واكثرها سيطرة عليهم. قليلون هم الاشخاص الذين يستطيعون ان يفكروا تفكيرا علميا حينما يتعرضون للبحث في فلسفات تختلف هي وفلسفاتهم في الحياة. ومرور الزمن على فلسفة الشخص يخلع عليها وشاحا من القدسية يصعب معه عليه ان يجردها عنه. واذا حدث ان استطاع المرء بعد ارتقائه سلم التطور الثقافي ان يناقش الفلسفات الاجتماعية المختلفة مناقشة سليمة فأن هناك رواسب عاطفية في قرارة نفسه تأبى الا ان تتحدى التفكير الى حد بعيد. وقديما قيل:

ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وأخيرا أرى من المناسب ان اقول ان الوقوف دون انتشار الفلسفات غير المرغوب فيها (في زمان ومكان معينين) لا يكون فعالا من الناحية الايجابية اذا تم عن طريق الضغط الفكري على دعاتها والمؤمنين بها. ان

جل ما يفعله هذا النوع من الاجراءات هو الايحاء الى دعاة تلك الفلسفات ان يكونوا شديدي التمسك بفلسفاتهم وان يصبحوا على أتم استعداد للتضحية في سبيل الدفاع عنها. كما انه كذلك يشجع حملة تلك المبادئ على اتقان العمل المستور المتخفي واتخاذ الرموز والشعارات (التي لا يسهل حلها) للاستمرار على التبشير بتلك المبادئ كما تعلمهم كذلك ان يتحينوا الفرص السانحة للظهور والانتقاض. ومما يزيد الوضع الذي وصفناه حراجة ان تكون مقاليد الامور العامة في الاقطار التي تظهر فيها المبادئ (غير المرغوب فيها من قبل بعض الناس) موكولة الى فئة من الرجعيين واصحاب المصالح المركزة. هذا الى ان انتشار الفلسفة (أية فلسفة) والايمان بها لا يتوقف على سلامتها من الناحية العلمية بقدر ما يتوقف على مدى استجابة الناس لها عن طريق ملائمتها لمقتضى حالهم وايمانهم بأن التسليم بصحتها يتفق هو وتحقيق ما يصبون اليه من تغيير في الاوضاع العامة على النحو الذي يردونه. ان علاج المبادئ غير المرغوب فيها لا يتم على وجهه الصحيح على ما أرى الا عن طريق استئصال العوامل التي تؤدي الى انتشارها وذلك بسد الفجوات الاجتماعية والفكرية التي تتسرب تلك المبادئ بواسطتها الى عقول الناس.

ذلك ما يتصل بمناقشة أسس التفسير المادي للتاريخ. اما مناقشة أسس التفسير الدوري للتاريخ (على الشكل الذي قال به كل من شبنكلر وتوينبي) فيمكننا ان نقول على وجه الاجمال ان القول بمرور الحضارة بمراحل معينة قول اكثر شبها بالبحث الادبي منه بالبحث العلمي. ثم ألا يجوز لنا ان نسأل عن كيفية ميلاد الحضارة وزمانه؟ هل ان ميلاد الحضارة يشبه ميلاد الكائن

الحي؟ ام انه يختلف عنه؟ وما عوامل ذلك الاختلاف ان وجدت؟ ويصدق الشيء نفسه على موت الحضارة. ما معنى موت الحضارة؟ هل انه يشتمل على اندثار آثارها الفلسفية والدينية واللغوية والسياسية الخ... ام انه يتضمن اختفاء بعض مقوماتها؟ واذا كان موت الحضارة يعني اختفاء بعض مقوماتها فهل يصح ان ندعو ذلك موتا للحضارة؟ هل المقصود بموت الحضارة انحلال وحدتها؟ هل ان الانحلال وبخاصة السياسي منه معناه موت الحضارة؟ هل معنى موت الحضارة سلب سلطانها السياسي من أيدي الفئة الحاكمة؟ ثم ما هي خصائص الاقلية المبدعة؟ كيف تظهر الى الوجود؟ ومتى؟ ما هي عوامل تفسخها وانحلالها؟ ما الفرق بينها وبين سائر ابناء الشعب؟ هل ان عواملها الوراثية السبب في كونها كذلك؟ ام ان بيئتها جعلتها على تلك الصفة؟ ما علاقتها ببقية ابناء الشعب؟ ثم ما هي صفات البيئة الجغرافية الملائمة؟ وخصائص البيئة غير الملائمة؟ وما الحد الفاصل بينها؟ هل ان جميع الحضارات جاءت نتيجة للبيئة التي وصفها توينبي؟

يمكننا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان عوامل وقوع الحوادث التاريخية كثيرة ومتشابكة ومعقدة. وان في كل حادثة تاريخية يمكننا ان نعثر بعد التحليل الدقيق على جملة عوامل بعضها عسكري وبعضها فكري ،سياسي او دينى) وبعضها- اقتصادي وبعضها فكري (سياسي او ديني) وبعضها – اقتصاي وبعضها جغرافي الخ... غير ان تلك العوامل لا تؤثر في كل حادثة تاريخية بنسب متساوية او متكافئة فبعضها اكثر اثرا من بعض آخر. ولا يمكن ان تعرف درجة تلك العوامل بالنسبة لبعضها الا بعد تحليل الحادثة التاريخية المعينة التي يراد دراستها. فكما اننا في عالم الطب لا نستطيع ان

نعرف نوع المرض الا بعد تحليل حالة المريض ودراسة اعراض المـــرض فكذلك الحال في الاحداث التاريخية. واذا علمنـــا ان اعـــراض كثيـــر مـــن الامراض تكون متشابهة امكننا ان نقول كذلك ان التحليل العام لكثيـــر مـــن الحوادث التاريخية قد يوحي لبعض الباحثين ان سبب حدوثها اقتصادي او ديني الخ... ولكن بعد التحليل الدقيق قد يهتدي المؤرخ بان ذلك العامل (او تلك العوامل) نتاج لتلك الظواهر العامة لا اسباب لها.

اهم مراجع الفصل الثالث

1. Conforth, M, Dialectical Materialism and Historical Materialism. London, Laurance and Wishart,1953.
2. Hegel, The Philosophy of History, Translated by Sibree. New York, Willey Book Company, 1944.
3. Hook, Sidney, From Hegel to Karl Marx, New York, The Humanist Press, 1950
4. Jerold, D., A Respense to professor Toynbee's Challenge; London,Dent, 1954.
5. Lebon, I.H.G An Introduction to Human Geography, London. Hutchinson 1952.
6. Ogburn, W.F. and Minkoff, M.F., A Handbook of Sociology, Kegan Paul, 1953.
7. Russell, B., Power, George Allen, 1938.
8. Soroken, P.A; Social Philosophies of An Age of Crisis, Adam Black, 1952.
9. Taylor, G. (editor), Geography in The Twentieth Century, Methuen, 1953.
10. Toynbee, A.I., Civilization on Trial, Oxford Univeristy Press, 1949.

الفصل الرابع

التحيز في التاريخ

يلوح لي أن البحث التاريخي يشتمل على ناحيتين -وصف ما وقع من الحوادث وأصدار أحكام مختلفة عليه. ويظهر الاختلاف بين المؤرخين في كلتا الناحيتين انه في الناحية الثانية (اصدار الاحكام) أكثر وضوحا منه في الناحية الأولى (وصف ما وقع من الحوادث). ويمكننا أن نجمل اسباب الاختلاف (الذي يظهر بين المؤرخين بدرجات متفاوتة) في المجالات الثلاثة التالية:

(١) طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه.

(٢) طبيعة المجتمع الذي ينتمي اليه.

(٣)عوامل شخصية مزاجية تتصل بكل مؤرخ.

وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا أن نقول ان الاختلاف في الرأي قد يحصل بين مؤرخ ومؤرخ يعيشان في الزمان نفسه والمكان ذاته أو في المكان نفسه ولكن في زمنين مختلفين أو في زمن واحد ومكانين مختلفين أو في مكانين مختلفين وزمانين مختلفين. ويصدق الشيء نفسه على الاتفاق في الرأي. ويعود سبب هذا الاتفاق وذلك الاختلاف على ما نرى الى نوع المسلمات الفكرية والعاطفية عند كل منهما. واعنى بالمسلمات الفكرية والعاطفية ما ينطوي عليه الانسان من معتقدات لا تقبل عنده الشك أو

الجدل كمبدأ التوحيد عند المسلمين مثلا وكمبدأ التثليث عند المسيحين وما شابه هذا وذاك مما نستطيع أن نسمي منــه الكثيــر. فتتفــق أحكامهمــا التاريخية اذا استندت الى مسلمات فكرية وعاطفية واحدة وتختلف في حالة اختلاف المسلمات التي تستند اليها. فلا غرابة إن رأينا مؤرخا معينا يتفــق مع مؤرخ آخر في بعض القضايا ويختلف عنه في بعض آخر وان عاصره في الزمان والمكان او في أحدهما أو اختلف عنه في كليهما. ومن الطــرف أن نذكر هنا ان كل مؤرخ يعتبر ان المسلمات التي يستند اليها في أحكامــه التاريخية هي الاساس السليم لاختبار وجاهة القضايا التاريخية التي يبحثها. فما كان متفقا معها من الاحكام التاريخية الاخرى كان صــحيحا ومعقــولا بنظره وإلا فلا. اي ان الاحكام التاريخية التي لاتختلف عن احكامه او عــن الاحكام التاريخية التي يتفق هو معها انما هي احكــام بنظــره جــائرة او مبتسرة او متحيزة او غير ناضجة الخ...

وللبحث في عوامل الاختلاف والاتفاق بين المــؤرخين يجمــل بنــا ان نتصدى لبحث تلك المسلمات عند المؤرخين بشكل عام. ولكي نوفى البحث حقه من الشرح يجدر بنا أن نبدأ بحثنا في منابع تلك المسلمات.

والمنابع هي:

(١) طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه:

لكل عصر من العصور التي يعيش فيها المجتمع الانساني مزاج علمي واجتماعي أو مسلمات عامة يشترك في التسليم بصحتها معظــم البــاحثين الاجتماعيين إن لم يكونوا كلهم. واعني بمزاج العصر أو روحه أو طابعــه

تلك المبادئ العامة العلمية والاجتماعية التي يتميز بها عصر عن عصر آخر. غير ان ذلك لا ينبغي أن يفسر بأن بعض المسلمات لا تنتظم أكثر من عصر واحد (كأن يشترك عصران مثلا في مسلمات عامة ويختلفان في الوقت نفسه في التسليم بمسلمات عامة اخرى) ذلك لان التاريخ عملية مستمرة ذات حلقات متسلسلة ومترابطة يؤدي بعضها الى بعض آخر ويؤثر بعضها في بعض آخر ويتأثر فيه. وبما ان المؤرخ يدخل ضمن الباحثين الاجتماعيين في العصر الذي يعيش فيه فأنه يخضع لروح ذلك العصر أو طابعه أو مزاجه. فالمؤرخ المسلم المعاصر مثلا يختلف هو والمؤرخ المسلم الذي عاش في العهد العباسي عندما يتعرض للبحث في طبيعة الاقاليم وفي جغرافية الصين وفي عوامل المد والجزر والخسوف والكسوف وفي كثير من المسلمات العلمية الحديثة. هذا من ناحية روح العصر في الجوانب العلمية. أما اختلافهما في الجوانب الاجتماعية فيبدو في نظرة كل منهما الى اعمال الملوك والقادة ومنزلة الجماهير في تغيير مجرى التاريخ. وفي موقف الاسلام من المسيحية، وفي بحث علاقات المسلمين بالغربيين وما شاكلها. ذلك لان طبيعة العصر الحاضر تتصف بما ندعوه بمقاييسنا الحاضرة انتشار الافكار الحرة، والاهتمام بحياة الشعوب، والنظر الى الملوك والقادة نظرة دنيوية زمنية، والدعوة الى بث الالفة والتعاون بين الامم طرا بغض النظر عن معتقداتها الدينية ومواقعها الجغرافية. على حين ان العكس ربما كان هو الشائع في العالم الاسلامي أثناء الحكم العباسي. ويصدق الشيء نفسه عند البحث في موقف المؤرخ المسيحي الذي عاش

في اوربا مثلا ابان الحكم العباسي في العراق. وموقف زميله في الوقت الحاضر. غير ان كلا من المؤرخين (المسلمين او المسيحيين) مع هذا يشتركان ببعض المسلمات الدينية والمذهبية التي انتظمت كلا العصرين. فلا غرو ان تقاربت أحكامهما في القضايا التاريخية ذات الصلة بتلك المسلمات. وفي هذه النقطة نفسها تكمن عوامل الاختلاف بين المؤرخ المسلم العباسي والمؤرخ المسيحي الذي عاصره. ويصدق الشيء نفسه على المؤرخ المسلم الحديث والمؤرخ المسيحي الحديث. وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على اثر طبيعة عصر المؤرخ في احكامه التاريخية أمثلة كثيرة تدل على اثر طبيعة عصر المؤرخ في احكامه التاريخية. من ذلك مثلا ان المؤرخ البريطاني المعاصر لا يؤيد افعال الملكة ماري تيودور المتعلقة بما نسميه في الوقت الحاضر بالضغط الديني على رعاياها من المسيحيين البريطانيين غير المنتمين الى المذهب الرسمي للدولة. على حين ان المؤرخين الانكليز الذين عاصروها اعتبروا موقفها سليما لان مقاييس المؤرخين في ذلك العهد لا تصف موقف الملكة بالتعصب وانما تدعوه امرا طبيعيا وسويا تقتضيه ضرورات المجتمع وتعاليم الدين نفسه. وقد حصل العكس في موقف المؤرخين الفرنسين من سياسة مدام دي مدشى المغايرة لسياسة الملكة ماري تيودور حيث سياستها المبنية على ما ندعوه الآن بالتسامح الديني الى نقد لاذع من قبل من عاصرها من المؤرخين لانها تساهلت مع الطوائف المسيحية "الخارجة" على مبادئ الدين وهوامر كما يبدو لايؤيده مؤرخو فرنسا المعاصرون نظرا لطبيعة العصر الحاضر. وعلى هذا الاساس

يمكننا ان نقول ان ما يعتبره مؤرخ عاش في عصر من العصور اضطهادا قد لايكون كذلك بنظر مؤرخ عاش في عصر آخر يختلف عنه في مسلماته الاجتماعية.

(٢) طبيعة المجتمع الذي ينتمي المؤرخ اليه.

لكل مجتمع عقائده في الدين والسياسة والعلم والاخلاق وماشاكل ذلك. وقد تنتظم تلك العقائد او بعضها اكثر من مجتمع واحد وقد تسرى الى اكثر من عصر واحد. غير ان الباحث يلحظ من الجهة الثانية انه كثيرا ما تنتشر عقائد متباينة في المجتمع الواحد في عصر واحد اوفي اكثر من عصر. يخضع المؤرخ كما يخضع غيره من افراد المجتمع لتلك العقائد او بعضها فتتاثر احكامه التاريخية بما خضع له من تلك العقائد. فأذا تصدى مؤرخان يختلفان في عقائدهما لبحث قضية تاريخية تتصل بتلك العقائد المختلفة عند كل منهما فأنهما يختلفان في احكامهما الصادرة عليها. يحدث هذا اذا كان المؤرخان يعيشان في عصر واحد ومكان واحد او في عصر واحد ومكانين مختلفين او في مكان وعصرين مختلفين اوفي عصرين مختلفين ومكانين مختلفين. ويكفي للدلالة على ذلك ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسلمون في الماضي والحاضر على الحروب الصليبية من حيث اسبابها ونتائجها ومن حيث اهميتها التاريخية وتحديد المسئولة فيها على احد الطرفين المتنازعين وبين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسيحيون القدامى والمحدثون، او ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون الالمان المعاصرون على المسؤولين على اثارة الحرب العالمية

الثانية مثلا وبين الاحكام التي يصدرها المؤرخـون الـروس او الانكليـز. ويتجلى ذلك الاختلاف بوضوح كذلك اذا وازنا بين الاحكام التـي يـصدرها المؤرخ البريطاني المعاصر (المنـصف بنظـر الـشعوب التابعـة للنفـوذ البريطاني) على تصرفات حكومته في الدول التابعة لها وبين مـا يـصدره مؤرخو تلك الدول (من الوطنيين بنظر بعض افراد مجتمعات تلك الدول على الاقل) من احكام، او بين الاحكام التي يصدرها المؤرخ الروسي في الوقـت الحاضر على سلوك قياصرة روسيا وسياستهم وبين الاحكام التي اصـدرها المؤرخون الروس القدامى الذين عاشوا انتشار المبدأ الماركسي في ذلـك القطر. واذا نظرنا للامر من زاوية اخرى امكننا ان نقول ان للسلطة القائمة أثرا في نوع الاحكام التاريخية الصادرة بحقها وبحق خصومها، وقديما قيل:

والناس من يلق خيرا قـائلون لـه ما يـشتهي ولام المخفـق الهبـل

(٣) العوامل المزاجية والشخصية:

لقد مر بنا القول بأن المؤرخ يستمد عناصر تفكيره من مصادر ثلاثة – هي العصر الذي يعيش فيه والمجتمع الذي ينتمي اليه والعوامل الخاصـة به. هذه المصادر يتعرض كل شخص (سواء اكان مؤرخا ام غير مـؤرخ) لتأثيرها مع اختلاف في درجة تأثير بعضها بالنسبة لبعض آخر. ويتجلـى اثرها في علاقات الافراد اليومية وفي سلوكهم وانماط تفكيرهم بقـدر مـا يظهر ذلك في احكامهم التاريخية وربما تعداها فأنتظم نظريـاتهم العلميـة وفلسفاتهم الاجتماعية والسياسية. واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان اختلاف الاشخاص في احكامهم المتصلة بجميع مجالات الحياة راجع الى

اختلاف مسلماتهم العاطفية والفكرية. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان السياسي الذي يطلق عليه زيد من الناس صفة الخيانة السياسية او الالحاد مثلا حسب مسلماته قد لا يكون كذلك بنظر عمرو الذي تختلف مسلماته عن مسلمات زيد وتتفق هي ومسلمات ذلك السياسي، وقس على ذلك الاحكام المختلفة في مجالات الحياة جميعها. يتجلى ذلك بين الافراد في المجتمع الواحد وبين الفرد نفسه في فترات مختلفة من تاريخه اذا تغيرت مسلماته وبين المجتمعات المعاصرة وغير المعاصرة وبين المجتمع نفسه في فترات مختلفة من التاريخ. فما اعتبره الاسلام كفرا لم يكن كذلك بنظر العرب في جاهليتهم، بل العكس كان هو السائد. وما سماه اليونان ايمانا كان زندقة بنظر المسيحيين، وما يطلق عليه المسلمون في الهند الحادا ليس هو كذلك بنظر الهندوس، وما ينعته بعض العراقيين في الوقت الحاضر بالعنصر الخرب او الهدام ليس هو كذلك بنظر عراقيين آخرين او بنظر الروس، والطعن بالذات الملكية في مصر أثناء حكم فاروق كان جرما وخيانة يستحق فاعله اقسى انواع العقاب في حين انه في الوقت الحاضر يعتبر عملا وطنيا وربما كان مجلبة للتقدير والمكافأة.

يمكننا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان المؤرخ يخضع للعوامل التي تتصل بعصره ومجتمعه وشخصه. والعوامل المتصلة بشخصه وان كانت دون شك آتية من العصر والمجتمع إلا انها تتفاوت في اثرها حسب تفاوت الأشخاص في تكوينهم (الوراثي والبيئي) ونعني بالعوامل التي تتصل بشخص المؤرخ نوع الثقافة التي حصل عليها ودرجتها وظروفه العائلية

والاجتماعية ومركزه الاجتماعي وجميع العوامل النفسية التي تميزه عن غيره. فالمؤرخ ذو المزاج الهادىء المتند مثلا تختلف أحكامه عن أحكام المؤرخ المندفع المتحمس ويصدق الشيء نفسه على الاختلافات العائلية والاجتماعية والاقتصادية. يحدث ذلك أحيانا حتى في الحالات التي تتماثل فيها العوامل الآتية من العصر والمجتمع.

يتضح مما ذكرنا ان التاريخ من ناحية الأحكام التي يصدرها المؤرخون على حوادثه مجموعة من وجهات النظر المختلفة لكل منها ظروفها الخاصة بها والمسلمات (الفكرية والعاطفية) التي تستند اليها. وما دام المؤرخون يختلفون في نوع مسلماتهم (للعوامل التي شرحناها) فاختلاف احكامهم التاريخية إذن أمر واقع ولا سبيل إلى التخلص منه تخلصا تاما. ان جل ما يستطيع ان يفعله المؤرخ في هذا الصدد كما سنرى هو محاولة تخفيف حدة تعصبه أو تحزبه (بالنسبة للاخرين) من جهة وتغيير نوعه من جهة أخرى. وجريا مع هذا المنطق يمكننا ان نقول ان ما يدعوه مؤرخ معين بالتحيز لا يكون كذلك إلا في الحالات التاريخية المبنية على مسلمات تختلف هي ومسلماته. ولا يكون ذلك التحيز "تحيزا" بنظر مؤرخ يستند إلى مسلمات لا تتفق هي والمسلمات التي يستند اليها الحكم التاريخي الآنف الذكر. فكأن التحيز نعت يطلقه المؤرخون على الأحكام التاريخية التي تستند إلى مسلمات فكرية وعاطفية تخلف هي ومسلماتهم. وإذا كان الأمر كذلك ألا يحق لنا ان نقول ان جميع المؤرخين متحزبون بالنسبة لبعضهم وانهم يختلفون في مدى ذلك التحزب وفي نوعه؟.

وإذا علمنا ان التحزب الشائع في التاريخ كثيرا ما أصبح عاملا من عوامل بث التفرقة والقطيعة بين ابناء الأمة الواحدة وبين الأمم. كذلك وأنه في الأعم الأغلب لا يتفق هو ومزاج العلم الحديث في البحث والمناقشة امكننا ان نقول أن علاجه أمر تحتمه طبيعة البحث العلمي وتقتضيه مصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري شريطة ان نجعل منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري مسلماتنا في البحث. وان نعتبرها كذلك تسير جنبا الى جنب بقدر ما يتعلق الأمر بظاهرة التحزب في التاريخ على اقل تقدير. وبقدر ما يتعلق بفلسفة التاريخ التي نميل اليها يمكننا ان نقول ان منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري من الممكن ان تسير في الوقت الحاضر جنبا الى جنب لا في موضوع التحزب في التاريخ حسب بل في مجالات أخرى كذلك. ونقصد بمنطق العلم الأسلوب الذي يستعمله الباحثون في موضوع الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات في التوصل الى حل مشكلاتهم العلمية أو الاسلوب الذي يشابهه فيما يتصل بجمع الادلة والتريث في اصدار الأحكام. ونقصد بمصلحة المجتمع ان يعيش أبناؤه متعاونين يتقاسمون خيراته ويتمتعون بالعيش في مظاهر الحياة المختلفة. ومصلحة الانسانية هي ان يعيش أبناؤها على النمط الآنف الذكر نفسه. ومن الطريف ان أذكر هنا بأنه من الممكن ان تعتبر دعوتي هذه تحيزا غير انه تحيز من نوع جديد. تحيز للقضاء على التحيز الشائع.

وقبل ان نتصدى للبحث في علاج التحيز الشائع لتخفيف حدته وتغيير نوعه في ضوء المسلمات التي ذكرناها يجدر بنا ان نشير إلى المظاهر التي

يتقمصها إذ ان بعض مظاهر التحزب اكثر "تحزبا" من بعض آخر وأقل وضوحا كذلك.

يظهر التحزب في التاريخ أحيانا على شكل تعابير لغوية توحي نوعا خاصا من المعاني تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ. فقد يطلق مؤرخ على حركة عسكرية اسم عصيان أو تمرد على حين ان مؤرخا آخر ينعتها بأرق النعوت والطفها كأن يصفها بالتحرير أو التطهير وما شاكلهما. وباستطاعة القارئ لغرض الاستدلال على وجاهة ما ذهبنا اليه ان يوازن بين آراء المؤرخين الكاثوليك والبروتستنت مثلا في الحكم على حركة لوثر وفي تسميتها كذلك. فالمؤرخون البروتستنت يدعونها "بالأصلاح الديني" على حين ان المؤرخين الكاثوليك يسمونها "الخروج على مبادئ الدين". ومن الطريف ان أذكر هنا ان زميلا أخبرني انه عثر على كتاب لتدريس التاريخ في بعض المدارس اللبنانية قبل بضع سنوات يطلق مؤلفه على ما اصطلح جمهرة المؤرخين المسلمين على تسميته "بهجرة الرسول" اسم "هروب من يسمونه بالرسول" والفرق بين هجرة وهروب من جهة وبين الرسول ومن يسمونه بالرسول من جهة ثانية لا يحتاج إلى تعليق. ومن أطرف ما عثرنا عليه في هذا الصدد، ما ذكرته جريدة المونتر Moniteur الفرنسية في اعدادها الصادرة بين اليوم التاسع واليوم الثاني والعشرين من شهر آذار عام ١٨١٥ في معرض التحدث عن تنقلات الامبراطور نابليون بعد فراره أو هروبه (او تركه ان شئت) البا وهو في طريقه الى فرنسه[1].

---

[1] Sprott, W.J.H. Social Psychology, London, Methuen, 1952, P.P. 91-92.

9. March: The monster has escaped the place of his banishment.

قالت الجريدة في عددها الصادر في اليوم التاسع من آذار: لقد هرب الخبيث من منفاه.

10. March: The Corsican ogre has Landed at Cape Juan.

اليوم العاشر:

دخل السفاح الكورسيكي كيب جوان

11. The tiger has shown at Gap. Troops are advancing on all sides to arrest his progress. He will conclude his miserable adventure by becoming a wanderer among the mountains.

اليوم الحادي عشر: لقد ظهر النمر في كاب. تقدمت قوى الجيش في جميع الجهات لايقافه عند حده. سيقلع عن مغامراته اليائسة ويتحول هائماً نحو الجبال.

12. The monster has actually advanced as far as Grenoble.

اليوم الثاني عشر: وصل الخبيث فعلا الى كرينبول.

13. The tyrant is now at Lyon. Terror seized all at his appearance.

اليوم الثالث عشر: الطاغية الآن في ليون. لقد اثار ظهورد الرعب في النفوس.

18. The userper has ventured to approach within 60 hours' march of the capital.

اليوم الثامن عشر: اصبح المعتدي على بعد خمسة ايام مشيا عن العاصمة.

19. Bonparte is advancing by forced marches, but it is impossible that he reach Paris.

اليوم التاسع عشر: يشق بونابارت طريقه الى باريس ولكن هيهات ان يدخلها.

20 Napoleon will arrive under the walls of Paris to- morrow.

اليوم العشرون: سيكون نابليون غدا ضمن حدود مدينة باريس.

21. The Emperor Napoleon is at Fountainebleau.

اليوم الحادي والعشرون: الامبراطور نابليون في فونتنبلو.

22. yesterday evening His Majesty the Emperor made his public entry and arrived at the Tuileries. Nothing can exceed the universal Joy.

اليوم الثاني والعشرون: شرف صاحب الجلالة الامبراطور قصر التوليري امس. لقد عم السرور الجميع بشكل يفوق الوصف.

والفرق بين هروب الخبيث من منفاه... وبين تشريف جلالة الامبراطور الخ... لا يحتاج الى تعليق.

ويظهر التحزب في التاريخ احيانا اخرى بتشويه الحقائق او فقدان الدقة والنزاهة في تسجيلها. ويتجلى كذلك بأنتقاء جوانب الاحداث التاريخية التي تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ او بأخفاء الجوانب الاخرى او بصوغها بهيئة تبين تفاهتها او سخافتها. ويظهر التحزب احيانا اخرى في التعليقات والاحكام التي يصدرها المؤرخ في اعقاب الحوادث التي يدونها او في ثناياها. وعلى هذا الاساس يمكننا نقول ان التحزب في التاريخ يكون مباشرا احيانا وغير مباشر احيانا اخرى. ويتضح التحزب المباشر في حقل الاحكام التاريخية الصريحة. على حين ان انتقاء الكلمات الخاصة وذكر

الحقائق المشوهة او اغفال تسجيل بعض جوانب الحادثة وما شاكلها تدخل ضمن التحزب غير المباشر. ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان علاج التحزب من اصعب الامور وانه اصعب في التحزب غير المباشر منه في التحزب المباشر.

والتفكير في علاج الشائع في التاريخ يدفعنا الى البحث في امكانية جعل التاريخ علما كسائر العلوم الطبيعية حيث يستند الباحثون الى مسلمات واحدة (او متقاربة) كل في موضوع اختصاصه ولا يختلفون في ذلك الا اذا تسرب لهم الشك في صحة تلك المسلمات. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان امكانية اعتبار الموضوعات الاجتماعية بشكل عام والتاريخ بشكل خاص ضمن حضيرة العلوم ظهرت للمرة الاولى بوضوح في القرن الماضي الذي تميز بالنسبة لما سبقه من العصور بطغيان البحوث النظرية والتجريبية في الظواهر الطبيعية. وكان في مقدمة الداعين الى ذلك كل من رانكي (١٧٩٥- ١٨٨٦) وبكل (١٨٢١- ١٨٦٢) وجون ستورت مل (١٨٠٦- ١٨٧٣) وهربرت سبنسر (١٨٢٠- ١٩٠٣). فقد ذكر هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من الباحثين وبخاصة اوكست كومت (١٧٠٨- ١٨٥٧) ان الاسلوب العلمي التجريبي يمكن ان يدخل في بحث الظواهر الاجتماعية والتاريخية. وبما ان تقدم البحث العلمي قد بهرهم انذاك بقدر ما راعهم تأخر البحوث الاجتماعية والتاريخية فقد عزو تلك الهوة السحيقة بين تقدم العلوم الطبيعية وتأخر الموضوعات الاجتماعية والتاريخية الى انتفاء وجود اسلوب البحث العلمي في مجال البحوث

الاجتماعية والتاريخية وزعموا بأن قضية تقدم البحوث الاجتماعية والتاريخية ورفعها الى مصاف العلوم تتوقف على ضرورة تطبيق الاسلوب العلمي في مجالاتها المختلفة. ولعل من المناسب ان نذكر في هذا الصدد ان دعوة المفكرين الذين ذكرناهم وان لاقت من ايدها من الباحثين الا ان هناك باحثين كثيرين تصدوا لتفنيدها ودحض أسسها. وفي مقدمة من فعل ذلك المؤرخ الالماني والفيلسوف وليم دلثي (١٨٣٣- ١٩١١) الذي قسم المعرفة الانسانية الى قسمين: معرفة طبيعية ومعرفة انسانية او اجتماعية. تتضمن الاولى منهما البحث في علاقة الانسان بقوى الطبيعة من جهة وعلاقة قوى الطبيعة ببعضها من جهة اخرى. فأدخل الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات وما على شاكلتهما من الموضوعات ضمن القسم الاول. على حين ان المجموعة الثانية تشمل بنظره التاريخ والفلسفة والموضوعات الاجتماعية عامة ومجالها كما يزعم دلثي دراسة علاقة الانسان بالانسان (داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم). وتختلف في راي دلثي موضوعات المجموعة الاولى عن موضوعات المجموعة الثانية من حيث موضوعها او مادتها ومن حيث أسلوب البحث فيها. ولا يمكن حسب رايه استعارة الاسلوب الذي يسير بموجبه البحث في موضوعات المجموعة الاولى لغرض تطبيقه في بحث موضوعات المجموعة الثانية (كما خيل لرانكي وسبنسر ومن لف لفهما). هذا من جهة ومن جهة ثانية فأن موضوعات المجموعة الثانية بنظره (وهو امر على جانب كبير من الظرافة بالنسبة لما اعتدنا عليه) هي التي يمكن ان تدعي علوما. أما موضوعات

المجموعة الاولى (كالفيزياء والكيمياء مثلا) فلا يجوز أن نصفها بالعلم اطلاقا (وهو أمر كما يتضح مخالف لآراء الباحثين الآخرين الذين أشرنا اليهم). والحجة التي استند اليها دلتي لدعم رأيه هذا هو ان الباحث الاجتماعي يستطيع الولوج في جوهر المادة الاجتماعية ويتخيل انه جزء منها على اقل تقدير على حين ان الباحث في الظواهر الطبيعية لا يستطيع إلا وصفها من الخارج. فالمؤرخ مثلا يستطيع ان يتقمص شخصية الملك الذي يتكلم لنا عن تاريخ حياته ويضع نفسه بموضوع على القدر المستطاع (ويدعو دلتي هذه الظاهرة بـ (Sympathetic Insight) على حين ان الكيميائي مثلا لا يستطيع ان يتقمص شخصية الاوكسجين عند بحثه فيه. ويجمل بنا ان نشير هنا إلى ان دلتي في استبعاده الظواهر الطبيعية من حضيرة العلوم (على الشكل الذي يفهمه) لا يريد كما يخبرنا هو نفسه ان يقلل من أهميتها أو ان يجعلها ثانوية الأهمية بالنسبة للموضوعات الاجتماعية. ان كل ما يريد ان يفعله دلتي في هذا الصدد هو البرهنة على ان الموضوعات الاجتماعية تختلف في (اسلوبها ومادتها) عن البحوث الطبيعية. وانه لا يمكن اطلاقا (بنظره) استعارة الاسلوب العلمي (على الشكل الذي يطبق فيه في مجال دراسته الظواهر الطبيعية) لغرض تطبيقه في مجال دراسته الموضوعات الاجتماعية وبخاصة التاريخ.

ووجه الاختلاف بين العلوم الطبيعية (وبخاصة الكيمياء) وبين التاريخ يظهر جليا في جوانب كبيرة. من ذلك مثلا ان المؤرخ (الذي يسجل حوادث التاريخ بعد وقوعها في العادة) لا يستطيع كما هي الحال عند زميله

الكيمياني ان يضع تلك الحوادث في المختبر (كما توضع المواد الكيمياوية) وان يخضعها للتجارب العلمية المعروفة لكي يتصرف بسلوكها على الشكل الذي يريده لغرض التعرف على خصائصها بدقة ووضوح مستفيدا من امكانية عزلها عن بعض المواد أو خلطها معها أو مع غيرها حسبما تستلزم الظروف والأحوال. ويبدو الاختلاف بين العلوم الطبيعية بشكل عام وبين التاريخ (والبحوث الاجتماعية كافة تقريبا) كذلك في ان الباحث في العلوم الطبيعية (اللهم الا في الدول التي توجه العلم توجيها سياسيا) يتصدى لبحث موضوعات قليلة الصلة أو معدومة الصلة بميوله الخاصة وعقائدها الدينية والسياسية على حين ان المورخ يتناول في البحث مواضيع ذات صلة وثقى بميوله وعقائده. أي ان الباحث الطبيعي أكثر قدرة على البحث الموضوعي المجرد عن النزعات والأهواء (شخصية كانت أم قومية) من المؤرخ. والمؤرخ بدوره يختلف مدى تحزبه في بحثه باختلاف الموضوع الذي يعالجه. وكلما كان موضوع البحث شديد الصلة بعقائده في الدين والسياسة اصبح من المتعذر جدا عليه ان يبحثه بحثا علميا أوقريبا من ذلك. والعكس صحيح كذلك. ويتجلى الاختلاف بين العلوم الطبيعية بشكل عام (وبخاصة العلوم المختبرية) وبين التاريخ في ان الظواهر الطبيعية أقل تعقديا وتشابكا من الظواهر الاجتماعية من حيث عوامل حدوثها ومن حيث قدرة الباحث على عزل تلك الظواهر عن بعضها لمعرفة آثارها بالنسبة لبعضها. وإذا كان من المستطاع تحليل الظواهر الطبيعية الى مكوناتها لغرض البحث في خصائصها وسلوكها فأنه من الصعوبة بمكان

تحليل الظواهر التاريخية تحليلا علميا لمعرفة آثارها بالنسبة لبعضها. واذا كان من المستحيل في بعض العلوم (كعلم الفلك مثلا) على الباحث ان يضع الشمس أو القمر أو المريخ في المختبر لفحصه فأنه يتوصل إلى دراسة تلك الخصائص عن طريق تغيير علاقاته بها بواسطة التلسكوب وتغيير موقعه واتجاهاته بالشكل الذي يريده. اما عند المؤرخ فأن ذلك متعذر الحدوث نظرا للاختلاف الكبير في طبيعة موضوع البحث بين المجالين (مجال علم الفلك ومجال التاريخ).

يضاف الى ذلك ان الاختلاف بين العلوم الطبيعية والبحوث التاريخية يظهر جليا في ان المؤرخ ينتقي من الوقائع التاريخية ما يتصل بموضوع بحثه. وعملية الانتقاء هذه تتضمن (من الناحية السلبية) اهمال كثير من الأمور المتعلقة بالموضوع المراد بحثه. ولا تخلو المواضيع المنتقاة (والمهملة كذلك) من جوانب عاطفية ومزاجية تختلف بأختلاف المؤرخين. واذا علمنا انه من المستحيل حتى على من يتصدى لتدوين حادثة بسيطة (كحادثة أصدام سيارتين ببعضهما) ان يلم بجميع أطرافها (وتفاصيلها وملابساتها وظروفها القريبة والبعيدة) تبين لنا استحالة تدوين حوادث التاريخ تدوينا مفصلا وبخاصة ما يتصل منها بالحروب والانقلابات والثورات. فالمؤرخ اذن (شاء أم أبي) لا يدون جميع ما حدث في الواقعة التاريخية المعينة التي يبحثها بل هو يعرض جوانب منها ويهمل جوانب (قد تكون على جانب كبير من الأهمية). هذا إلى ان كثيرا من العوامل التي قد تبدو بأنها تافهة أو ثانوية الاهمية ربما تكون على مقدار لا يستهان به من

الأثر المباشر أو غير المباشر (بعد التحليل الدقيق) في مجرى الحادثة التاريخية التي يبحث المؤرخ فيها. وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان العوامل الثانوية أو التافهة (بنظر الباحث في الظواهر الطبيعية المختبرية) يمكن اعتبارها كذلك اذا ثبت ذلك مختبريا. على حين ان العوامل التافهة أو الثانوية بنظر احد المؤرخين بالنسبة للكيميائيين. هذا مع صعوبة البرهنة مختبريا على تفاهة العوامل التاريخية التي يظن انها تافهة او ثانوية الأهمية مثلا.

وهناك فروق اخرى بين الظواهر الطبيعية (وبخاصة في علم الكيمياء) وبين الحوادث الاجتماعية منها ان الكيميائي عند بحثه في سلوك الاوكسجين وعلاقاته بغيره من الغازات مثلا لا يبحث مطلقا في ماضي الأوكسجين أو في تاريخه وعلاقاته السابقة لعلمه ان ليس لذلك اثر في سلوك الأوكسجين في الوقت الحاضر. وعلى هذا الاساس فهو يحصر اهتمامه بالبحث في الأوكسجين بوضعه الحاضر مجردا عن جميع الاعتبارات. على حين ان العكس هو المتبع في المباحث التاريخية ذلك ان المؤرخ لا يستطيع استيعاب حركة من الحركات الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية أو الفكرية (أو دراسة الدور الذي لعبه شخص من الاشخاص في تلك الحركة) على الوجه الأكمل إلا إذا درس علاقاتها القريبة والبعيدة في الزمان والمكان. ومن تلك الفوارق أيضا الاختلاف الكبير بين تنظيم المعرفة العلمية وتنظيم المعرفة التاريخية. ففي العلوم بشكل عام (والرياضيات بشكل خاص) توجد فروض وقواعد ثابتة ومسلم بصحتها (ولو تسليما

نسبيا لا مطلقا) على حين ان التاريخ يفتقر إلى امثال تلك القواعد والقوانين. اي ان التاريخ يحتوي على وقائع معينة حدثت لتوافر شروط خاصة بنسب خاصة يكون من المستحيل عودتها ثانية بجميع تفاصيلها في الحياة (او في المختبر). واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان التاريخ لا يعيد نفسه مطلقا وانما هناك تشابه في بعض حوادثه. فهناك إذن فرق كبير في المقدمات التي تستند اليها العلوم وبخاصة الرياضيات وفي المقدمات التاريخية. غير ان الفرق بينهما مع هذا لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى الاستنتاجات المستمدة من المقدمات. فالاستنتاجات في الرياضيات تسير وفق قواعد وقوانين معينة لا تحيد عنها (إلا في الحالات التي سلف ان ذكرناها). فالمعادلة ٤ كتب+ ٤من جنسها= ٨ كتب (بغض النظر عن حجومها والوانها ومحتوياتها واللغة التي كتبت فيها) اما الاستنتاجات في التاريخ (ان وجدت) فتكون خاضعة خضوعا كبيرا الى ظروفها الزمانية والمكانية. غير ان ذلك لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن استحالة توقع حدوث وقائع تاريخية معينة في المستقبل القريب او البعيد. فبامكان بعض الافراد من ذوي التفكير النفاذ والقدرة على ربط الحوادث القريبة والبعيدة ان يتوصلوا الى احتمال حدوث حوادث معينة (وربما تحدث تلك الحوادث بالفعل). ولكن ذلك لا يحصل إلا في حالات نادرة للغاية وسببه راجع إلى صعوبة أخذ جميع العوامل مقدما بنظر الاعتبار. واذا استطاع الانسان أخذ ما يمكن أخذه من العوامل لحدوث الوقائع في المستقبل فهناك امور مفاجئة ليس من السهل ان ينتبه اليها الانتباه الذي تستحقه. ولعل من

الطريف في هذه المناسبة ان نذكر ان بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) السياسي الالماني الذائع الصيت صرح بعد سقوطه انه سوف لا يعيش ليشهد حوادث "حرب عالمية تندلع نيرانها من البلقان". راجع:

B. E. Schmit, The coming of the War, New york Charles Scribners Son, 1930, vl.I,p. 77.

وتتضمن الفروق في المقدمات والنتائج (المتعلقة بالرياضيات والتاريخ) فروقا في نوع التنظيم المتصل بكل منهما والذي يسير بموجبه المختص بدراسة كل منهما. فالرياضي (عندما يحاول حل مسألة رياضية معينة) يحاول حلها عن طريق اخضاعها لقانون رياضي معروف. ومن ثم يسير بالحل خطوة فخطوة الى نتيجته النهائية. واذا صادف ان أخطأ الرياضي في ذلك فأن ذلك الخطأ اما ان يكون سببه راجعا الى خطأ في انتخاب القانون الذي تخضع له المسألة المراد حلها او الى خطأ في السيروفق مستلزماته في حالة كونه منطبقا على تلك المسألة بالذات.

ويمكننا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان التاريخ ليس بعلم اذا كانت كلمته "علم" تعني مجموعة من الحقائق الثابتة التي تسير وفق قوانين وقواعد غير متغيرة (ولو نسبيا). والتاريخ ليس بعلم كذلك اذا كان معنى كلمة "علم" متضمنا السيطرة المختبرية على الحوادث كما هي الحال في الكيمياء مثلا. ولكن ألا يجوز ان نعتبر التاريخ علما بالمعنى الذي نعتبر فيه الجيولوجي (دراسة طبقات الارض) علما؟ فالمشتغل بدراسة الجيولوجي يحاول اختبار المخلفات الارضية من احجار وبراكين وما شاكلها لغرض الاستدلال منها على اعمارها والعوامل التي اثرت فيها والتغيرات التي

اعترتها. وكذا المؤرخ يدرس المخلفات الاجتماعية (عسكرية وسياسية ودينية الخ... ابنية ومعابد وما شابهها) للاستدلال منها على ما حدث وربما لاكتشاف عوامل حدوثه. فالمؤرخ والجيولوجي يبحثان في ما يعثران عليه في الحاضر من مخلفات الماضي أثناء دراستهما لذلك الماضي نفسه ويستدلان على الماضي بواسطة ما بيد كل منهما من مخلفاته. ولكن الفرق مع هذا بينهما كبير. ذلك لان الجيولوجي يبحث (كما ذكرنا) في المخلفات الارضية وهي امور (كما لا يخفى) لا تمس كثيرا (بقدر ما يتعلق الامر بموضوع البحث) عواطفه المتعلقة بقوميته او عنصره او مذهبه او دينه او فلسفته السياسية. على حين ان المؤرخ يبحث في امور ذات صلة (قريبة او بعيدة مباشرة او غير مباشرة) بتقاليده وفلسفته في الحياة. هذا من جهة ومن جهة ثانية فأن اهتمام الجيولوجي ينصب على مجرد وصفه (وصفا موضوعيا على القدر المستطاع) لما يدرسه. على حين ان المؤرخ يتعدى حدود الوصف لما وقع من الحوادث فيصدر احكاما معينة عليها. ومصدر انتفاء الجانب العلمي في البحث التاريخي يعود الى الاحكام التي يصدرها المؤرخ على قيم الوقائع والاشخاص اكثر من عودته الى مجرد وصفه لها. واذا علمنا ان الاحكام التي يصدرها المؤرخ على وقائع التاريخ واشخاصه تكون مصبوغة بصبغة العصر الذي يعيش فيه والمجتمع الذي ينتمي اليه وعوامل شخصية ومزاجية اخرى (كما ذكرنا) ظهر لنا السبب الذي يجعل آراء المؤرخين مختلفة في الحادثة الواحدة التي يؤرخونها. ولا يقف الفرق بين التاريخ والجيولوجي عند الحد الذي ذكرناه. فهناك فرق آخر بين

التاريخ والجيولوجي هو ان الثاني منهما (في الوقت الحاضر على كل حال) يسير وفق قواعد معينة وقوانين ثابتة (ولو نسبيا) ومتفق عليها. على حين ان التاريخ كما سلف ان ذكرنا ما زال في مرحلة البحث عن امثال تلك القوانين (ان وجدت؟).

فالتاريخ اذن يشبه علم طبقات الارض في بعض النواحي ويختلف عنه في نواحي اخرى. فالتاريخ كذلك يشبه في بعض النواحي كلا من علم الطب والهندسة ويختلف عن كل منهما في نواحي أخرى. والمورخ يشبه كلا من السائح والمحقق العدلي والمحامي في بعض النواحي ويختلف عنهم في نواحي أخرى. وينحصر جوهر الاختلاف (في جميع الحالات) في اختلاف موضوع البحث عند المؤرخ عنه عند الطبيب والمهندس والمحقق العدلي. بقدر اختلافه في اسلوب البحث نفسه. على حين ان وجه الشبه ينحصر عادة في ان اولئك جميعا يستدلون على شيء ليس حاضرا من اشياء موجودة لديهم (بشكل مبعثر او منظم).

ان عملية التاريخ من وجهة نظر القائلين بها تتصل على ما ارى باسلوب البحث اكثر من اتصالها بموضوعه. غير ان المورخ مع هذا لا يستطيع ان ينتفع الا ببعض خصائص الاسلوب العلمي في البحث نظرا لطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه. وتتلخص الخصائص التي يمكن ان ينتفع بها المؤرخ في الامور التالية:

(١) توخي الدقة على التعابير وانتقاء الكلمات المحايدة وغير المشبعة بالجوانب العاطفية على القدر المستطاع. وهذا امر من الصعوبة بمكان

ذلك لان للمؤرخ وجهة نظره الخاصة فيما يحدث لذلك ينتقي الالفاظ الملائمة. فالمؤرخون الانكليز يطلقون اسم "الانسحاب" من دنكرك او "اخلاء" الساحل الفرنسي على العملية الحربية التي يدعوها المؤرخون الالمان بـ "الفرار" من دنكرك او "تطهير" الساحل الفرنسي من الانكليز. ولعل عبارة "ترك" دنكرك وتخلية الساحل الفرنسي اقرب الى الحياد من التعبيرين السالفين.

(٢) التزام جانب النزاهة في تسجيل الحوادث بأمعان وبخاصة ما كان منها غير متفق مع مسلمات المؤرخ، غير ان هذه النقطة كزميلتها السابقة من اصعب الامور ذلك لان المؤرخ كثيرا ما يرى بعض الحقائق التاريخية بعواطفه على الرغم من سلامة بصره وتفكيره، كما انه كثيرا ما يستنتج امورا من مقدمات منطقية لا تؤدي حتما اليها.

(٣) اخذ اكبر كمية ممكنة من وجهات النظر في كل قضية تاريخية ومناقشتها مع المسلمات التي تستند اليها شريطة ان يبدأ الباحث بفحص مسلماته نفسها، واذا تذكرنا ان الاستناد الى المسلمات امر لا مفر منه وان الناس يختلفون في نوع مسلماتهم امكننا ان ندعو الى جعل المسلمات الاجتماعية والعلمية المنبثقة عن روح العصر الحاضر (لاننا نعيش فيه) اساسا للبحث والمفاضلة.

(٤) التريث في اصدار الاحكام والابتعاد عما كان جارفا منها او غير مستند الى حقائق كافية تدعمه ثم صوغ تلك الاحكام بشكل يجعلها توحي انها تحتمل الخطأ والصواب ذلك لان فرض الانسان احتمال تسرب الخطأ

لآرائه يتضمن امكانية عدم تسرب الخطأ للآراء المخالفة لرأيه، يضاف الى ذلك ان مزاج العلم كما سلف ان ذكرنا لا يتفق هو والطعن في الآراء المختلفة الا اذا ثبت خطلها من الناحية العلمية، هذا الى ان العلم يشجع تعدد الآراء واختلافها لان ذلك التعدد اساس حياته وتقدمه شريطة ان يتم الوصول الى تلك الآراء المختلفة بوساطة الاسلوب العلمي نفسه وشريطة ان يقلع الانسان عنها اذا ثبت خطؤها من الناحية العلمية. ومن المشاهد ان البحث العلمي كثيرا ما يسوق صاحبه الى مواجهة حقائق لا تتفق هي ومسلماته غير ان العالم (بدلا من ان يسد عليها منافذ تفكيره وعواطفه) فأنه يفتح لها قلبه وعقله ويستمر على التسليم بها الى ان يثبت فسادها من الناحية العلمية. وهكذا دواليك. ومن الطريف ان نذكر السامع ان آينشتاين قد سمى نظريته بالنسبية- وهي تسمية تتضمن صعوبة التسليم بوجود امور مطلقة في حقل العلم تتحدى الزمان والمكان.

وختاما نود ان ننبه القارئ هنا الى أن ما ذكرناه في هذا الفصل قد يصادف هوى في نفوس بعض القراء وقد لا يتفق معنا عليه بعض آخر. وظاهرة الاختلاف في الرأي على ما نرى لا يجوز أن تدعو الى الاستغراب أو الامتعاض ذلك لاننا كما سلف ان ذكرنا نكتسب مقاييسنا في الحكم على قيم الاشخاص والآراء والحوادث من المصادر الثقافية التي نتعرض لتأثيرها. وتصبح تلك المقاييس جزء لا يتجزأ بسهولة عن كياننا ولا نستطيع في كثير من الاحيان أن نناقشها مناقشة علمية. قليلون هم

الاشخاص الذين يستطيعون أن يفكروا تفكيرا علميا حينما يتعرضون للبحث في اعز معتقداتهم واكثرها سيطرة عليهم. ومرور الزمن على العقيدة يخلع عليها وشاحا من القدسية يصعب كثيرا تجريدها عنه. واذا استطاع المرء بعد ارتقائه سلم التطور الثقافي أن يناقش عقائده والعقائد الاخرى المختلفة عنها مناقشة علمية فان هناك في قرارة نفسه رواسب عاطفية تأبى إلا ان تتحدى التفكير الى حد بعيد.

اهم مراجع الفصل الرابع

1. Bryant, A., Litrature and the Historian Cambridge University Press, 1952.
2. Cole, G.D.H., Essays in Social Theory, The Macmillan Company, 1950
3. De Beus, I.G., The Future of the West, Eyre and Spottiswrods, 1953.
4. Dewey, J., Logic Henry Holt, 1938.
5. Hancock, W.K., The History of Our Times, University of London, 1950.
6. Hayek, F.A The Counter- Revolution of science, The Free Press, 1952.
7. Trevelyan, G.M., An Outobiography, Longman, 1949.
8. Trevelyan, G.M., History and the Reader, Cambridge University Press. 1946.
9. Wooton, B., Testament for Social Science, Unwin, 1950.

الفصل الخامس

تدريـــس التأريـــخ

يمكننا، إذا اعتبرنا التأريخ محتويا على أخبار السلف، غثها وسـمينها، صحيحها وسقيمها، ما كان منها واقعا حقيقيا وما كان خرافيا مختلقــا، ان ندعي بأن تدريسه (بمعنى نقله من شخص إلى شخص من الناحية الفكرية) قديم قدم المجتمع ذاته. ففي كل مجتمع من المجتمعات البشرية (قـديمها وحديثها) تتولى فئة من الناس (من ذوي الخبرة) نقل أخبار أولئك الذاهبين عن الحياة الى هؤلاء الوافدين اليها. وما القصص (بغض النظر عن نوعه وسلامته) الا اسلوب من أساليب تدريس التاريخ. ولعل القصص في أوائــل ظهوره (قبل ان يهتدي الانسان الى اختراع فن القراءة والكتابة) كان هــو الاسلوب الوحيد في هذا الشأن حيث كان بعض الناس يحتشدون في اماكن خاصة وفي مواسم معينة ليستمعوا إلى ما يرويه ذوو الخبرة مــن أخبــار الملوك والقادة والزعماء الغابرين، وما يتصل بــذلك مــن أخبــار الآلهــة والانبياء والصالحين من السلف، وليستمعوا كذلك إلى ما يقصه الرحــالون من أخبار الامم المعاصرة الأخرى ووصف ديارهم ومنتجاتهم وعاداتهم في الدين والسياسة والاخلاق. وبما ان المنطــق الــشفوي عرضــة للتحــوير والتزييف والزيادة والنقصان فقد كان كثير مــن تلــك القــصص مــشوبا بالمبالغات والاكاذيب والخرافات. ومما زاد في ذلك ان القصاصين والسواح كانوا يلجون ،بصورة مقصودة أو غير مقـصودة لكـي يجلبــوا انتبـاه

السامعين ويجعلوهم راغبين في سماع قصصهم ونتائج أسفارهم) إلى تشويه كثير من الحقائق واظهار جوانب الغرابة فيها مجسمة ذلك لان الشيء غير المألوف يثير الانتباه في العادة اثارة تختلف درجتها بمقدار درجة غرابته وبعده عن المألوف بالنسبة للسامعين.

وبعد ان اهتدى الانسان إلى تعلم الكتابة والقراءة، وظهر التعليم بمعناه المدرسي المعروف، ادخل موضوع التاريخ في منهاج الدراسة. واخذ يسير من حيث اسلوب تدريسه على الاسلوب القصصي الذي سلفت الاشارة اليه. وقد انيط تدريسه أول الأمر بالأشخاص ذوي الميول الأدبية والشعرية حيث يتجلى الميل للتهويل والمبالغة والخيال. غير ان الهدف من تدريسه قد اصبح مع مرور الزمن لأجل تربية الأخلاق "الفاضلة" عند الناشئة وجعلهم يتزينون بزي من يدرسون تاريخهم من "أعاظم" الرجال وأكابر المصلحين. فلا غرو ان اصبح منهجه مقصورا على انتقاء نواحي "القوة" و "العدالة" وانتزاعها انتزاعا من حياة اولئك "العظماء" و "المصلحين". وهذا يتضمن اهمال مظاهر حياتهم الأخرى التي يبدو فيها الظلم والاستهانة بحقوق الناس أو الخروج على الآداب العامة والتقاليد. يضاف إلى ذلك (نظرا لان التعليم الاولي كان قد نشأ قبل زميله التعليم الثانوي والعالي في كثير من الاقطار اللهم إلا في حالات خاصة حيث كان التعليم الأولي يجري في البيوت أو الكتاتيب) ان اسلوب التدريس ومنهجه قد جعلا بشكل يتلائم هو ومستوى الاطفال على الشكل الذي قدره المعنيون بالأمر في ذلك الزمان. وقد استمرت الحال على ذلك حتى الوقت الحاضر حيث أصبح التاريخ في

المدارس الاولية يدرس بشكل يتناقض، تمام التناقض، مع حدوثه. أي ان الطفل يبدأ بدراسة التاريخ من الحاضر الى الماضي. ولا عكس. فيقرا، في العراق مثلا. حياة الملك فيصل الثاني قبل حياة ابيه الملك غازي، وحياة الملك فيصل الأول وهكذا إلى ان يصل الى حمورابي. ولم تكن كتب مقررة للتدريس إلا نادرا كما ان مدرسي الموضوع لم يكونوا من المختصين في دراسته وتدريسه إلا في حالات قليلة.

ذلك ما يتصل بتدريس التاريخ في المدارس الأولية. اما ما يتصل بتدريسه في الصفوف المتأخرة من المدارس الابتدائية وفي الدراستين الثانوية والعالية فكانت مفردات مناهجه مغايرة في وضعها لمفردات منهج التعليم الأولي. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فأنه كان أوسع مدى واكثر تفصيلا (في التعليم العالي منه في التعليم الثانوي، وفي التعليم الثانوي منه في التعليم الابتدائي والأولى). اي ان الطالب (بعد اجتيازه مرحلة التعليم الأولى –الصوف الأربعة الاولى من المدرسة الابتدائية العراقية مثلا–) يدرس التاريخ كما وقع فعلا (هارون الرشيد قبل المأمون.... والملك فيصل الاول قبل الملك غازي الخ...) كما انه يتوسع إلى حد ما في دراسة كل موضوع على حدة. ويزداد ذلك التوسع كلما تدرج الطالب صعدا في سلم الدراسة. ولكن مع هذا لم تكن هناك كتب معدة للتدريس أو مدرسون مختصون بتدريسه الا نادرا....

وكان تدريس التأريخ بشكل عام مبنياً على اهتمام المؤرخين ومدرسي التاريخ بالفتوحات العسكرية والانقلابات السياسية –وبخاصة ما يتعلق منها

بتاريخ الامة التي ينتمون اليها والامم ذات الصلة بتلك الامة. ولم تعط الحركات العلمية والاقتصادية والتقدم الفكري والاجتماعي نصيبا كبيرا من عناية المؤرخ واهتمام مدرس التاريخ ذلك لان اهتمام المؤرخ ومدرس التاريخ كان موجها نحو الاطناب في بحث ما كان رائعا بنظرة من اعمال الملوك والقادة والزعماء. ومن الطريف ان نذكر هنا ان تلك الدراسات كانت مشوبة بالمبالغة والكذب في كثير من الاحيان. يضاف إلى ذلك ان اعتماد مدرس التاريخ كان منصبا في أغلب الاحيان على التمسك الحرفي بكتاب واحد (هو الكتاب المدرسي المقرر في حالة وجوده) فلا عجب ان كان ما يلقيه المدرس في الصف لا يخرج عن كونه اعادة حرفية لما هو مسطور في الكتاب من حيث معناه ولفظه. ولم يجرأ المدرس (بله الطالب) في العادة ان يظهر شكه في صحة أقوال مؤلف الكتاب بل اعتبر ما هو مسطور فيه كانه من الامور المسلم بصحتها. ولم تكن لتدريس التاريخ أهداف واضحة ومتفق عليها. غير ان الباحث من الجهة الثانية، يستطيع ان يقول مع هذا ان الغرض العام من تدريس التاريخ (الذي كان شائعا آنذاك أي من أوائل ادخال موضوع تدريس التاريخ في منهج الدراسة إلى مفتتح القرن التاسع عشر) كان لأجل غرس حب الوطن والتفاني في سبيل الأمة التي ينتمي الفرد اليها. لذلك اهمل المؤرخون ومدرسو التاريخ (دون قصد في الغالب على ما يظن) أمر الاهتمام بتربية روح النقد عند الطالب في كثير من القضايا المتصلة بتاريخ امته. ويعود السبب الرئيس في ذلك، على ما نرى، الى محاولتهم (المبنية احيانا على القناعة وأحيانا أخرى على الجهل وأحيانا

ثالثة على النفاق الرامي إلى خدمة مصالحهم الخاصة) تصوير الامة التي ينتمون اليها تصويرا أظهرها محقة (حتى في الحالات التي تتفق هي والواقع أو المنطق أو الخلق) في جميع مظاهر تاريخها. وهذا الاجراء يتضمن من الناحة السلبية، كما هو واضح، اظهار الامم الاخرى بمظهر المعتدى في القضايا التي حدثت بينها وبين تلك الامة. فلا غرو ان كان تدريس التاريخ، على الشكل الذي مرت الاشارة اليه، عاملا أساسا من عوامل نشر العداوة والبغضاء بين الامم المختلفة من جهة، وبين الجماعات المختلفة التي تكون منها الامة الواحدة (وبخاصة في النواحي الدينية او المذهبية او الاقليمية او العنصرية) من جهة اخرى[1]. ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان احد عوامل الجفاء المستحكم (بين الفرنسيين والالمان او بين العرب والفرس والاتراك مثلا) راجع في بعض صوره الى اساليب تدريس التاريخ ومناهجه واهدافه في مدارس تلك الامم. ويجد المتتبع لتدريس التاريخ في مدارس كثيرة من الامم المتجاورة ان نار البغضاء توقد بين تلك الامم عن طريق "حقائق" التاريخ وكيفية تدريسها. فلا عجب والحالة هذه ان رأينا

---

[1] ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان التاريخ القومي في كل امة يدرس في العادة (من حيث مناهجه وطرائق تدريسه واهدافه) من وجهة نظر من بيدهم مقاليد الامور السياسية في تلك الامة. وكثيرا ما يدرس الطالب (الذي ينشأ في عائلة تختلف عمن بيدهم مقاليد الحكم سياسيا او دينيا او مذهبيا) حياة اشخاص محاطين بهالة من الاعجاب والتقدير على حين انه يسمع من افراد عائلته ما يتناقض هو وما يدرسه على خط مستقيم. كما انه، في الوقت نفسه، لا يسمع في المدرسة بأسماء اشخاص (بله عدم دراسته لحياتهم وجهادهم) تكن لهم عائلته اسمى آيات الولاء والتبجيل.

مناهج التاريخ وكيفية تدريسها. فلا عجب والحالة هذه ان رأينا مناهج التاريخ واصول تدريسه وكتبه تعتريها يد التغيير بعد الحروب والانقلابات العسكرية والسياسية. وما فعلته بعد اعدام الملك لويس السادس عشر وزوال الملكية منها، وما فعلته روسيا بعد زوال حكم القياصرة من اراضيها. وما فعلته مصر بعد زوال الحكم الملكي منها واندحار الاسرة المحمدية العلوية ٠(وما ستفعله فيما يتصل بتاريخ اللواء محمد نجيب حيث اتهم اثناء كتابة هذه السطور بالتآمر على سلامة "الجمهورية" التي ساهم في ايجادها قبل بضعة شهور) في تغيير مناهج التاريخ وكتبه واهداف تدريسه يكفي دليلاً على وجاهة ما ذهبنا اليه.

لقد حصلت (منذ منتصف القرن الماضي وبخاصة طوال خمسين السنة الماضية) تغييرات في مناهج التاريخ وفي اساليب تدريسه وفي الاهداف المتوخاة من ذلك التدريس. فقد كثر الاهتمام (في مرحلة التعليم العالي بصورة خاصة)[٢] بالحركات العلمية والاقتصادية وبالتقدم الفكري والاجتماعي، وضؤل إلاهتمام بالحروب والانقلابات العسكرية والسياسية. كما زاد الاهتمام بمعالجة مشكلات المجتمع الراهنة –لا مجرد الانشغال بدراسة ماضيه فقط. واخذ الماضي نفسه، من الجهة الثانية، يدرس بالقدر

---

[٢] اما في المراحل السابقة وبخاصة في مرحلة التعليم الابتدائي فقد كثر الاهتمام بأولاع الاطفال ومستوياتهم الفكرية والاجتماعية. يضاف الى ذلك ان الكتب المقررة للاطفال قد اصبح يراعى في وضعها (من ناحيتها المادية كالطباعة والورق والتصاوير وما الى ذلك ومن ناحيتها الفكرية من حيث الاسلوب وسهولة الافكار المعبر عنها) مستوى الاطفال الذين يدرسونها وفي التعليم الثانوي تراعى ميول المراهق ومميزاته.

الذي يؤثر فيه في الحاضر ويساعد على تفسير بعض مظاهره. هذا الي ان كثيرا من الاعمال التي حدثت في الماضي (والتي كانت موضع اعجاب بعض المؤرخين ومدرسي التاريخ الاقدمين) اخذت تناقش وتقدر قيمتها الاجتماعية في ضوء صلتها بالحاضر الذي تعيش الامة فيه مدى اهميتها في تقدمه من الناحيتين المادية والفكرية. واخذ المدرسون يستعينون بأكثر من كتاب واحد ويسمحون لا كثر من وجهة نظر واحدة في مناقشة القضايا التاريخية. كما اخذوا يشجعون الطلاب على النقد النزيه (بالنسبة لمداركهم وطبائع الموضوعات مدار البحث) وابداء ارائهم في ما يدرسون. كما اخذوا كذلك يعتبرون اقوال المؤرخين اقوالا تحتمل الخطأ والصواب. ولتحقيق ذلك حاولوا ان يتحروا الاسباب (ويبحثوا عن العوامل) التي تدفع لاصدار احكام معينة على حوادث التاريخ. فلا عجب ان اتبع المدرسون في تدريسهم طريقة المناقشة العلمية في تدريس التاريخ وقل اهتمامهم بأتباع طريقة الالقاء المعروفة. ويعود السبب الرئيس في هذا التغيير الذي اعترى موضوع التاريخ، على ما يبدو، الى التغييرات الاساس التي طرأت على موضوع التربية بشكل عام من حيث فلسفتها وسكلجتها، وما تبع ذلك من تبدل في مناهج التدريس واصوله في الموضوعات المختلفة وبضمنها موضوع التاريخ.

يستطيع الباحث ان يقول بصورة عامة ان تدريس موضوع التاريخ، في الماضي والحاضر من حيث مواد مناهجه واساليب تدريسه واهداف التدريس كان (وما زال) مبنيا من حيث الاساس على الخطة العامة التي

يسير عليها من بيدهم مقاليد الحكم من الناحية السياسية: فتدريس التاريخ في المانيا النازية غيره في المانيا القيصرية. وفي مصر "الجمهورية" غيره في مصر "الفاروقية". وفي فرنسا قبل نشوب ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ غيره فيها بعدها. وهكذا مما نستطيع ان نسمي منه الكثير. يحصل ذلك اذا تغير اسلوب الحكم ورجاله احيانا كما ذكرنا، ويحصل احيانا اخرى مع استمرار اساليب الحكم (ورجاله) اذا استلزمت الظروف السياسية (الداخلية او الخارجية) ذلك على الشكل الذي يقدره المسؤولون كما حصل تدريس التاريخ في الحالة الثانية (تغيره في حدود استمرار الوضع القائم ورجاله) يحتاج الى شيء من الشرح لطرافته وغرابته في آن واحد فسوف نشير الى ما حدث في روسيا في هذا الصدد. وتفصيل ذلك ان موضوع تدريس التاريخ قد تغير ثلاث مرات متتالية. مرتين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، والمرة الثالثة بعد ان وضعت تلك الحرب اوزارها. ففي اوائل عهد الثورة الروسية بعد عام ١٩١٧ اعتبر التاريخ الروسي نزاعا بين الشعب الروسي من جهة وبين الفئة الحاكمة من قياصرة ورجال دين ونبلاء ومتنفذين ومن لف لفهم من جهة ثانية اي انه حسب المنطق الدايلكتيكي، كفاح بين طبقة مستغلة (بكسر الغين) قليل عديدها من جهة وبين الشعب المستغل (بفتح الغين) من جهة ثانية، كما انه اعتبر كذلك صراعا بين الشعب الروسي البائس بأسره وبين الشعوب البائسة الاخرى (تحقيقا للمطامع الاستعمارية للفئة الحاكمة في روسيا وفي الاقطار الاخرى). والتاريخ الروسي، بنظر حملة لواء الثورة البلشفية، منذ عهد ايفان الثالث

(في القرن الخامس عشر) الى الحرب الاولى كان سائرا على اساس الاستعمار والتوسع والاعتداء من الخارج، وعلى اساس الاستذلال والاستغلال والرجعية والاستبداد من الداخل. وكانت الفئة الحاكمة وبخاصة العائلة المالكة من آل رومانوف منذ توليها الحكم عام ١٦١٢ الى تنحيتها عنه بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٧) تمثل، بنظر حملة هذا الرأي، الاستعمار والرجعية في الحقلين الداخلي والخارجي. فالقيصر بطرس الاكبر[٣] مثلا ملك مستبد وغاشم، وما "الاصلاحات" التي قام بها الا امور سطحية ومخدرة وغير نافعة للجماهير. اما حروبه فكانت على حد زعمهم لاغراض استعمارية واعتدائية صرفة. والامبراطورة كاترين الثانية[٤] بنظرهم اطلقت العنان لشهواتها الجنسية الجامحة فعبثت بالعرش ومركزه وطوحت بالشعب الروسي ومصالحه. استمع الى اوصافها التالية (بعد وفاة زوجها الشرعي: لم تتزوج قط مرة اخرى.. ساندت عشاقها جعلتهم جنرالات وذوي مناصب رفيعة ورؤساء ووزراء. احتلت بولندة ووضعت او نصبت احد عشاقها ملكا عليها (بولندد)... على الرغم من كبر سنها وفخامة حجمها، فأن نسيم الربيع لا زال يعصف بروحها الرومانسية، هكذا وقعت في الحب مره اخرى هذه المرة من غلام صغير الى درجة ان يكون حفيدها. وخلال سنوات حكمها الاخيرة، حكم هذا التافه، الفاسد، حكم روسيا كقيصر.

الذي اعتدنا نحن العراقيين ان ندرسه لطلابنا بأنه رمز للتقدم والاصلاح في التاريخ الروسي.

4. Dale carnigie, Little Known Facts About Well Known people, Popular Library, p.p.28-30

استمر التاريخ الروسي (بله التاريخ غير الروسي) يدرس في المدارس الروسية على النحو الذي وصفناه بعد الثورة الروسية مدة ربع قرن تقريبا. وقد اعتبر دعاته مخالفيه من المدرسين والمؤرخين (في حالـة وجـودهم) "اعداء" للشعب. وقد اشرف على وضع الكتب المدرسية والمناهج الدراسية، على الاساس الذي مرت الاشارة اليه، المؤرخ الروسي المعروف بوكرفزكي Pokrovisky الذي كان يتمتع بتقدير لنين وثقته [*]، ويشغل كرسي استاذ للتاريخ بجامعة موسكو. غير ان تدريس التاريخ الروسي فـي المـدارس الروسية قد تعرض لتبديل كبير للمرة الثانية بعد عام ١٩٣١ حيث اتخذ ما يعرف في التاريخ الروسي الحديث بـــ "رسـالة سـتالين" Stalin Letter اساسا للبحث. لقد دعا ستالين في رسالته تلك الى ضـرورة العـودة الــى كتابات ماركس ولنين من جديد والاستنارة بها في ضوء الوضـع الـدولي الراهن آنذاك. كما جاء فيه ان آراء بوكروفزكي وكتبه لم تعد صالحة. وقد نتج عن ذلك ان جمعت تلك الكتب من الاسواق والمكتبات وتعرضت للحرق والتمزيق. وقد بدأت الحكومة منذ عام ١٩٣٢ تفكر بضرورة تجهيز الطلبة والمكتبات بكتب جديدة للتاريخ. فألفت الحكومة لهذا الغرض ثلاث لجـان:

(*) وكان يحمل بين اوراقه رسالة تقدير كتبها له لنين بخط يده. ومن مظاهر تقدير ستالين لهذا المورخ انه عندما توفى عام ١٩٣١ شيع جثمانه بأحتفال رسمي ومشى خلفه سـتالين وكبـار موظفي الدولة، ودفن قرب ضريح لنين. ومن مظاهر التقدير الاخـرى ان الحكومـة الروسـية وضعت طائفة من الجوائز العلمية بأسمه ينالها من يأتون بجديد في الحقل الذي كان يشتغل فيه. كما ان الحكومة الروسية كذلك غيرت اسم جامعة موسكو وسمتها جامعة بـوكروفزكي تخليـدا لاسمه.

لجنة خاصة لوضع كتب في التاريخ الروسي ترأسها الاستاذ فانتاج Vantatch، ولجنة اخرى لوضع التاريخ العام وبخاصة تاريخ الامم الغريبة ترأسها الاستاذ ليوكن Lukin، ولجنة ثالثة تحت ارشاد ستالين نفسه لوضع تاريخ الحزب الشيوعي. وقد انجزت اللجنتان الاولى والثانية عملها في عام ١٩٤٣ وقدمت كل منهما تقريرها الى ستالين ومساعديه كيروف Kirov وزودانوف Zhdanov. وبعد فترة وجيزة من الزمن ظهر في صحف موسكو ما يشير الى ان تقرير اللجنة الاولى رفض باعتباره غير واف بالغرض وان اللجنة لم تفهم الغاية من تأليفها ولم تقم بواجبها على وجهه الاتم. اما تقرير اللجنة الثانية فقد ارتؤى ان يعاد مع بعض التوجيهات الخاصة بتعديله. وكان الغرض من ذلك كله على ما يبدو هو التمييز بين الاستعمار وبين سياسة التوسع الروسي الجديدة التي تهدف الى "انقاذ البشرية من براثن الرأسمالية والرجعية" على حد زعمهم. لذلك وضعت الكتب التاريخية في روسيا على ذلك الاساس وفسر التاريخ الروسي والغربي وفقا لذلك.

اما التغيير الثالث لموضوع التاريخ في المدارس الروسية فقد ظهر قبل نشوب الحرب العالمية الثانية وما زال كذلك على ما يبدو. ويستند هذا التغيير من حيث الاساس على تقوية الروح العسكرية في نفوس الناشئة وتذكيرهم بأمجادهم العسكرية القديمة. فلا غرو ان رأينا الكتب التاريخية الجديدة تعتبر ايفان الثالث (الذي كان قيصراً رجعياً ومستعمراً قبل بضعة أعوام) من بين أبطال التاريخ الروسي والمؤسس الأول لروسيا الحديثة

حيث أنقذها من الاستعمار والعدوان البولوني- اللتواني. كما اعتبر القيصر بطرس الأكبر والقيصرة كاترين من أعاظم أبطال الشعب الروسي وان الحروب التي اشتركا فيها كانت حروبا دفاعية الغاية منها المحافظة على استقلال روسيا وكرامتها واستعادة الاراضي الروسية "السليبة". كما اعتبر القواد الروس القدماء امثال Kutuzov,Nevsky, Suvarov من الابطال القوميين لا من الطغاة المعتدين. وسبب ذلك على ما يبدو يعزى إلى طبيعة الأوضاع العالمية التي عاشت فيها روسيا في الفترة التي جاءت قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية وأثناءها حيث أصبحت روسيا تتطلع (بعد ان استقرت امورها السياسية والاقتصادية والعسكرية داخليا) الى نشر مبادئها في الدول الاخرى عن طريق السلم والحرب الباردة أحيانا وعن طريق السيف والحرب تارة اخرى.

اما تدريس التاريخ القومي في العراق (وبخاصة في مرحلة التعليم الثانوي) فقد بقي محافظا على اسلوبه القديم من حيث مادته ومن حيث أهداف تدريسه وطريقة ذلك التدريس. فما زالت مادته على وجه العموم محصورة في النواحي السياسية والعسكرية ولم تمسس نواحي التاريخ الاخرى (الاقتصادية والثقافية والعلمية) إلا مسا خفيفا يجعلها ثانوية الاهمية بنظر الطالب والمدرس. أما أهداف تدريس التاريخ فما زال يكتنفها الغموض والابهام. وتكون درجة هذا الغموض أكثر عند الطالب منها عند

المدرس. ولا تخرج أهداف تدريس التاريخ عند كثير من المدرسين من ان تكون تكملة تدريس المادة المقررة في المنهج لغرض نجاح الطلاب في آخر الامتحان. وقد يعتقد بعض المدرسين بأن الغاية من تدريس التاريخ هي خلق الشعور بالعزة القومية والتغنى بأمجاد السلف. غير ان طرائق تدريسهم مع مزيد الاسف كثيرا ما تعرقل تحقيق ذلك الهدف، وتخلق الجو بشكل ينقسم فيه الطلاب على انفسهم (يكون انقسامهم دينيا أحيانا ومذهبيا ثانية وعنصريا أحيانا ثالثة وسياسيا أحيانا رابعة). أي ان الطلاب في بعض دروس التاريخ يشعرون بفجوة كبيرة تباعد بينهم من الناحية الدينية (كما يحدث بين المسلمين والمسيحيين في تدريس الحروب الصليبية مثلا) أو من الناحية المذهبية (كما يحصل بين المسلمين انفسهم في قضايا السنة والشعية)، أو عنصرية (كما يحصل بين الاكراد والعرب) أو سياسية (كما يحصل بين من يسمون انفسهم تقدميين وزملانهم ممن يطلقون على أنفسهم اسم القوميين) هذا بالاضافة إلى ان الاعتزاز بمخلفات السلف من الناحية القومية كثيرا ما يعامل كأنه غاية بحد ذاته لا وسيلة لشحذ الهمم والعمل على تحسين الحاضر. وتعتمد طرائق تدريس التاريخ عندنا في العادة على الاسلوب التقريري والتمسك الحرفي بالكتاب المقرر. وكثيرا ما تكون محاضرات الاستاذ أو المدرس ترديدا حرفيا للشيء المكتوب في الكتاب أو في دفاتر الطلاب.

اننا لا ندعو إلى اعادة كتابة تاريخنا أو وإلى تغيير محتوياتـــه. وانمـــا نقترح على المدرس تمشيا مع الروح العلمي والواجب الــوطني ان يعتبــر آراء المؤرخين آراء تحتمل الخطأ والصواب. ان المؤرخ (والمدرس) كمـــا سبق ان ذكرنا لا يستطيع التجرد عن نزعاته الدينية والمذهبية والسياسية مهما حاول ذلك، وتكون آراؤه في العادة مصبوغة بصبغة الجماعة التـــي ينتمي اليها. وجل ما يستطيع المؤرخ (والمدرس) النزيــه ان يفعلــه هــو محاولة التخفيف من حدة عواطفه، وعرض أكثر من وجهة نظر واحدة في كل قضية من القضايا التاريخية الهامة. هذا من جهة ومن جهة ثانية فـــأن المؤرخ (والمدرس) المنصف لا يتخذ من حوادث وقعت في زمانها وتمـــت في ظروفها المعينة وسيلة لتصديع الوحدة العراقية في الوقت الحاضر. اننا عراقيون بغض النظر عن خلافاتنا في الدين أو المذهب أو اللغة فينبغي ان يكون هدفنا بث الوحدة العراقية لا تصديعها عن طريق التكتــل الــديني أو العنصري أو الاقليمي أو المذهبي. يضاف الى ذلك انه من المستحســن ان يتوسع المدرس في أوجه التاريخ التي ساهم فيها جميع السكان بغض النظر عن خلافاتهم، وان يُعنى كذلك بالحركات العلمية وبالتطور الفكري ويؤكــد على جميع الامور التي من شأنها ان تبث الالفة والمواطنة بين ابناء البلد. وينبغي للمدرس كذلك ان يربى ملكة النقد الحر عند طلابه وان يعودهم على معالجة مشاكلهم الاجتماعية بروح علمي نزيه، ويجعل درس التاريخ مجالا

لعرض مختلف الآراء ونقدها نقدا علميا لانتقاء أصلحها. هذا إلى انه يفضل ان تناقش القضايا الحساسة (المتعلقة بالعواطف) مناقشة فيها الشيء الكثير من الحكمة وعدم جرح شعور أصحابها. وينبغي كذلك النظر الى أعمال السلف نظرة نقد وفحص لا نظرة عاطفية شعرية تعتمد على المبالغة والتسليم اما بصحة العمل اطلاقا أو بخطله حيث تقدر جميع أعمال السلف، مهما كان نوعها، تقديرا عاطفية، لا يتفق هو ونظرة العلم الى الحوادث. اذ هو اقرب من الوجهة الاجتماعية الى الروح الدكتاتوري منه في تواضع العالم وبحثه المجرد من الاهواء والنزوات والمبنى على التعاون والاحترام المتبادل بين الناس جميعا مهما اختلفت منزلتهم الاجتماعية والدينية والسياسة. هذا بالاضافة الى ان تمجيد رجال السلف تمجيدا عاطفيا من الوجهة النفسية. يشير الى ان الأفراد الذين يطيب لهم ذلك التمجيد يعيشون في مجتمع لا يعتقدون بصلاحه فيهربون بعواطفهم (من حاضره) الى الماضي فيمجدونه ويعظمون رجاله. وكلما ساء الوضع بنظر الناس كثر ميلهم إلى التغني بمآثر الماضي. ولعل سبب ذلك هو انهم بمحاولاتهم التخلص عاطفيا من الحاضر يجسمون أخطاء الحاضر ويكبرونها هذا من جهة. ومن جهة أخرى فانهم يحاولون ان ينسوا (أويتناسوا) أخطاء الماضي ونقاط ضعفه. يضاف الى ذلك ان هناك بعض الناس بحكم استفادتهم من الوضع القائم يلهون الآخرين بمآثر الماضي ومخالفاته.

وختاما: اننا ندعو مدرسي التاريخ (والمؤرخين) الى ضرورة التريث في اصدار أحكامهم التاريخية وان يعودوا طلابهم على الاناة في جمع كل النقاط المتعلقة بقضية ما من القضايا قبل البدء بمناقشتها. اذ ان الغاية الاساس من تدريس التأريخ بنظرنا، ليست حشو ادمغة الطلاب بأسماء وتواريخ وآراء جامدة لا تقبل المناقشة. ان الهدف الاسمى لتدريس التاريخ هو تعويد الطلاب على التفكير السليم حين بحثهم في أعز معتقداتهم واكثرهم سيطرة عليهم.

أهم مراجع الفصل الخامس

المصدر الاول والسادس والثامن في الفصل الأول والمصدر الأول في الفصل الثاني والمصدر الاول في الفصل الرابع. يضاف الى ذلك:

1. Associtión of Assistant Masters in Secondary Schools, The Teaching of History, Cambridge University, Press, 1952.
2. Beales, A.C.F., A. Guide to The Teaching of History, University of London Press, 1937.
3. Her Majesty's Stationery office, Teaching History, 1953.
4. Sir John Adams (editor), The New Teaching, London , Harder and Stoughton, 1930.
5. Commission of Secondary School Curriculun, The Social Studies in General Education, New York, D. Appleton-Century Company, 1940.
6. The Association for Education in Citizenship, Education For Citizenship, Oxford University Press, 1935.
7. Dewey, John Democracy and Education New York, The Macmillan Company, 1916.
8. Bining, A. C., Teaching of The Social Studies in Secondary Schools New York, Megraw- Hill Company, 1941.
9. Maurice G. Shore, Soviet Education, New York, Philosophical Library, 1947.
10. Alxander Uralov, (Translated By L.I Smith) The Reign of Stalin, London, The Bodley Head, 1953.

المحتويات

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق بغداد (٥٣١) لسنة ٢٠٠٦

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية

رئيس التحرير
محي الدين زه نكه نه

تطمح هذه السلسلة الى انشاء جسور معرفية رصينة، بين القاريء العراقي المعاصر بعربه وكرده وسائر قومياته المتآخية، وبين الدرر الثقافية العراقية الكامنة في وديان النسيان التي ماتزال تشع حتى يومنا هذا، بالرغم من تراكم اتربة السنوات، بل العقود العديدة من الزمن عليها، في محاولة جادة مثابرة. وانفتاح عقلي وعلمي، على كل اثر جدير بالأحياء، مما تركه علماؤنا وادباؤنا الافذاذ، في مختلف فضاءات الابداع. الفكري، من تاريخ واقتصاد وسياسة وفلسفة وعلم اجتماع وادب ونقد.. وسواها..بقصد اثراء ثقافة المواطن وتوسيع افاق مداركه، عبر تعريفه بتلك الابداعات المشرقة، والانجازات الرائدة، التي تركها مفكرون وكتاب عراقيون، كل في مجاله الابداعي. على اختلاف قومياتهم واتجاهاتهم الثقافية والانتمائية والمذهبية في استنشاق حيوي لهواء الحرية والديمقراطية، وعناق حميمي واحتفاء حقيقي بكل سنديانة متجذرة في التراب العراقي، الذي يضوع عطره في حديقة الثقافة الوطنية الانسانية.

اننا نعرف ان مشروعا طموحاً كهذا، يتطلب اكثر من جهد. واكثر من طاقة. واكثر من فم، ينفخ اطنان الغبار المتراكمة فوق جواهرنا الاصيلة التي عجزت كل تلك السنوات العجاف الثقال من التشويه، والنظرة الاحادية والعنصرية البغيضة.. عن اضعاف اشعاعاتها..ناهيك عن اطفائها واخمادها..او طمسها..

وزارة الثقافة

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعر : ٢٠٠٠ دينار